
روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
٢
أسطورة النداهة

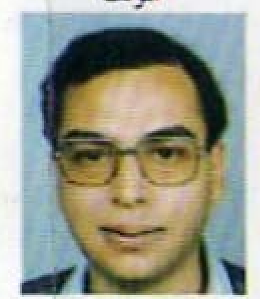
من أرض الغموض والرعب والإثارة

٣٣٩

أسطورة النداهة

هل تسمعون هذا الصوت العميق الساحر القادم من المجهول ... ؟! دعوني ألحق به ... ، ستقول أمهاتكم إن هذا هو صوت النداهة وأن ما من إنسان تباه إلا واختفى كل أثر له .. ، ستقول زوجاتكم إن هذا هو صوت النداهة .. الغول المتنكر في صورة فتاة حسناء تغرى الرجال باللحاق بها ... ، ستقول أخواتكم ... لا ... لا تذهبوا ... لا تصدقوا هذا الكلام .. تعالوا معى إلى الحقول المظلمة فى قرى محافظة الشرقية .. تعالوا نلبى هذا النداء .. ، وإذا ما فقدتم حياتكم فلا تخبروا أحدًا بأننى من دعاكم إلى النداهة !!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق



مقدمـــة ..

الاسم : د. رفعت إسماعيل .
السن : ستة وستون عامًا .
المهنة : أستاذ أمراض الدم (سابقًا) بعدد لابأس به من الجامعات فى مصر وأوروبا وأمريكا .
الحالة الاجتماعية : أعزب .

لقد عشت حياة حافلة أنقب فيها فى كل مكان عن أساطير الحياة التى ورثناها عن أجدادنا وأثارت رعبنا كما أثارت رعبهم ... واجهت الكونت (دراكيولا) و (الزومبى) ودخلت قلعة د. (فرانكنشتاين) وتعرضت للعنة الفراعنة ولعبت بأوراق التاروت وغير ذلك الكثير ..

وقبل أن يحين الأجل أو يقضى تصلب شرايين المخ على ذاكرتى آثرت أن أكتب حكاياتى كى يعرف الشباب أى محارب للخرافات والخزعبلات كنته فى حياتى ..

واليوم سأحكى لكم حكايتى المريرة مع رعب القرى المصرية العتيد .. (النداهة) .. ولن أكرر نفسى ..

لا تقرءوا هذه الصفحات إلا نهارًا وبين أحبائكم ..

ان الليل والوحدة يثيران الخيال .. وأنا أعرف هذا جيدًا لأنى عانيت منهما كما لم يعان أحدكم .. ولهذا ـ ولهذا فقط ـ أوصيكم ألا تقرءوا هذه الأوراق وحدكم ليلًا .. انتظروا شمس النهار .. وبقدم الصحبة الآدمية .

لقد نصحت .. وقد أعذر من أنذر !!..

* * *

١ ـ العـودة ..

قريتى أخيرًا !..

قريتى العجوز الطيبة حيث كانت طفولتى ومراهقتى قبل أن أنتقل إلى القاهرة كى أدرس الطب وأقيم هناك ..

لم يتبدل شيء ..

البيوت الطينية .. الساقية .. المسجد الذى تآكلت جدرانه .. الترعة الراكدة .. النخلة المائلة فوق حائط الكتاب .. الأطفال الحفاة يلعبون ألعابهم البدائية وقد تدلى المخاط من أنوفهم ..

وكنت أنا فى سيارة أجرة .. واحدة من تلك السيارات العتيقة التى لاتصلح إلا للسقوط براكبيها من الفلاحين التعساء فى الترعة ، لم تكن سيارتى لتتحمل هذا الطريق الوعر ، لذا تركتها فى القاهرة ..

ثمة فلاح عجوز متشكك يجلس جوارى وترتعش شفتاه بآيات قرآنية طيلة الوقت ، وكل ثلاث دقائق يهتف فى السائق :

ـ بالراحة يا (صالح) !.. هى الدنيا طارت ؟!..

فيضحك السائق فى فظاظة ، ويرفع عقيرته بالغناء بصوت أجش (لم تكن أجهزة كاسيت السيارات منتشرة فى ذلك الوقت لحسن الحظ) ، وتزداد سرعة العربة أكثر !..

وعلى جانبى الطريق يتوقف الفلاحون عن العمل فى حقولهم ليروا ما هنالك وقد ضيقوا عيونهم ـ من أثر الغبار والعرق ـ مؤكدين حقهم الإلهى فى التدخل فيما لا يعنيهم .. إلى أن يقول أحدهم فى ذكاء واضح :

ـ هذا (صالح) !

ـ لقد عاد إذن !

ويواصلون عملهم .. ويواصل العجوز قراءة القرآن ..

★ ★ ★

قريتى أخيرًا !..

هى إحدى قرى محافظة الشرقية على مسافة قصيرة من (فاقوس) واسمها (كفر بدر) .. هل تعرف هذا الاسم ؟!.. لا أظن .. هل ستتذكره ؟!.. لا أظن ..

إنه اسم آخر من تلك الأسماء المتشابهة التى يزخر بها ريفنا الطيب والتى لا يعرفها ولا يهتم بها سوى أبناء قراها ..

من هذه القرية الصغيرة صرت أحد أساتذة أمراض الدم المرموقين وعضوًا مرغوبًا فيه فى كل منتدى علمى فى العالم .. وصديقًا لكل علماء الدم فى الأرض ..

ليس هذا غرورًا ولكنه اعتراف بفضل هذه القرية الفقيرة علىّ ..

واليوم أعود إليها بعد انقطاع ، شاعرًا بحاجة النبات إلى جذوره ..

نظرات الأطفال الفضولية تلاحقنى ، والصبايا المراهقات يختلسن إلىّ الطرف ثم يلكز بعضهن البعض فى دلال مرح ..

لا أحد يذكرنى تقريبًا .. لا أحد ..

★ ★ ★

ووصلت إلى دارنا .. الدار الحنون التى عشت فيها أجمل أيامى ، وهى ـ كأغلب بيوت القرية ـ مصنوعة من الطين اللبن ، مصطبة عند مدخلها فوقها مصباح جاز مشروخ .. ثم الباب الخشبى العملاق .. والفسحة التى يمرح فيها البط والدجاج يتسلّى بالتقاط الحشرات من الأرض الطينية الزلقة ، وحجرة على يمين الداخل .. والفرن العتيق .. ثم درجات طينية منحوتة كيفما اتفق تصعد إلى الطابق العلوى حيث السطح بما عليه من أكوام تبن وأقراص من روث الماشية معدّة لتجف .. وجوارها حجرتى .. وبالطبع لم تكن الكهرباء قد وصلت قريتى فى ذلك الوقت ..

على الباب تنحنحت .. ثم دخلت وألقيت نظرة على العنز الصغيرة التى أخذت ترمقنى فى دهشة .. ، سيدة عجوز

جالسة وأمامها طشت نحاس كبير مليء بالأرز وقد شرعت تنقيه .. وجوارها شابة حسناء منهمكة فى تنظيف طفل صغير عار تمامًا ..

رفعت العجوز عينيها الذابلتين لأعلى فرأتنى ..

ـ ابنى ... (رفعت) ..!

ـ أمى ..!

وارتميت فى أحضانها وقبلت يديها فى نهم .. اليدين المعروقتين العزيزتين .. فى حين شرعت الشابة تعانقنى من الخلف دامعة ويداها مبتلتان بعد ..

ـ أختى ..!

يا للحنان .. ويا للرقة ! ابدًا لم أتلق فى حياتى قبلات بلا ثمن وصادقة إلى هذا الحد من أية امرأة إلا من أمى وأختى ، وأبدًا لم يبك إنسان بصدق حين يرانى إلا هاتين العزيزتين ، لكننى لم أفطن أبدًا قبل تلك اللحظة إلى ما هما فيه من فقر وبؤس حال ... دائمًا كانت هذه المعالم التى تحيطهما حقيقة مسلمة فى عينى إلا أن فترة غيابى عنهما جعلتنى أفطن الى أن من واجبى أن أوليهما عناية مادية أكثر ..

إننى ـ الآن ـ قادر على أن أبنى لهما بيتًا من الطوب .. وأن أوفر لهما الكثير من سبل الراحة التى هما جديرتان بها ..

لكن شيئًا فى عينى أمى جعلنى أؤجل التفكير فى ذلك .. إن حساسيتها الزائدة لن تعتبر اقتراحى برًا بأهلى بل سترى فيه لونًا ما من التعالى على بيئتى ، إن فكرة إقامتى وحيدًا بالقاهرة وسفرى للخارج مرارًا لاتفارقها .. وهى تؤمن إيمانًا مطلقًا لايتزحزح أننى ـ لابد ـ قد تغيرت ، وهى تنتظر أول تلميح منى كى يتحطم قلبها ..

نعم .. لنرجئ هذا الحديث الآن ..

* * *

كانت عودتى ـ للأسف ـ وبالًا على الطيور بالدار ..، مذبحة دامية قامت بها أختى .. وتم إعداد مأدبة هائلة لى فى حين أخذت أمى تدير (العملية) كجنرال فى حرب يعرف تمامًا كيف يكسبها ... رحمها الله كم كانت باسلة نشيطة ..

وجالسنا كهارون الرشيد على الطبلية بين أكوام الرقاق واللحم واللبن الرائب والخبز والفطير ، أدركت أن علىّ أن ألتهم كل هذا عن آخره وإلا تحطم قلبا هاتين العزيزتين ! وأمى ـ ككل أم مصرية ـ تؤمن أن صحة ابنها ليست على ما يرام فى أية لحظة تراه فيها ، وتؤمن أن الأكل هو العلامة الوحيدة الموثوق بها على الصحة ، ثم هى ـ طبعًا ـ ترى أننى تأخرت فى الزواج إلى حد مرعب ..

ـ كم أتمنى أن أطمئن عليك مع زوجتك ، هى التى ستعرف كيف ترعى صحتك وطعامك ..!

آه يا للنغمة الأليمة !..

كنت أنا وقتها قد بدأت أشعر بالوحدة وبتلك الغريزة التي يستشعرها الواحد منا فيرغب أن يكون اثنين ثم ثلاثة ثم أربعة وهكذا ... لم يكن قلبى يختلف عن قلب البواب والسماك وبائع الجرائد .. تلك الحاجة الملحة إلى رفيقة درب تنتظرك عند عودتك ليلًا وتودعك عند ذهابك صباحًا ..

رحمك الله يا أمى !.. كيف لو عرفت ـ وكيف لو عرفت أنا ـ أننى سأصل إلى سن السادسة والستين وحيدًا ، ولم يكن فى توقعى أننى سأرى كل هذا الذى سأراه وأننى سأقضى زهرة عمرى بين مصاصى الدماء والممسوخ حتى لا يبقى لدى وقت ولا متسع من عاطفة يسمحان لى بأن أجد فتاة لطيفة تشاركنى حياتى ..

ابتلعت قطعة اللحم التى كنت ألوكها .. وغمغمت :

ـ ربنا يسهل !

ونظرت لوجهها الودود الطيب كيف لو عرفت ما مررت به فى انجلترا وفى رومانيا ؟!.. لو عرفت لماتت هلعًا .. ولأقسمت أن أظل فى كنفها آمنًا حتى يموت واحد منا ..

مددت يدى أداعب ذقن الطفل العارى الذى أنا خاله .. وسألت :

ـ كيف حال (طلعت) زوجك يا (رئيفة) ؟

ـ بخير .. سيعود ليلًا ..

غمست لقمتى فى القشدة وطوحتها لفمى .. وواصلت الاطمئنان :

ـ وما أخبار (رضا) ؟!

و (رضا) ـ إن كنت لاتعلم ـ هو أخى ، وهو فلاح آثر أن يرعى أرضنا في القرية ويقيم مع زوجته فى الناحية الأخرى من البلدة لأن زوجته العصبية المتعالية لم ترد أن تعيش مع أمى وأختى ... مرت دقائق فطنت بعدها إلى أن واحدة منهما لم تجب عن سؤالى ..

ـ أقول .. ما أخبار (رضا) ؟

نظرة ساهمة فى عينى أمى .. ودمعة متجمدة فى عينى أختى وهى تحاول تجاهل السؤال بالتشاغل بإطعام طفلها .. ماذا حدث ؟!

ـ أمى .. ماذا حدث ..؟

وجدت أمى ألا مفر من الاجابة عن سؤالى فنظرت لعينى وهمست :

- رعاه الله وحفظه ..

- ماذا ؟.. هل .. هل هو مريض ؟.. هل تورط فى مشاكل ما ؟.. إن (نجاة) زوجته ..

- لاتتهم أحدًا يا بنى .. إنها إرادة الله ..

- إذن ماذا حدث ..؟

أنهضت أختى ابنها من على حجرها .. وهمست :

- (رضا) .. نالته النداهة ..

★★★

٢ - أسطورة جديدة ..

النداهة ؟!.. ياللذكريات التى تثيرها هذه الكلمة عندى ..!.. حكايات جدتى لنا جوار الفرن ونحن بعد صبية صغار نصغى لقصصها بعيون مفتوحة وأفواه فاغرة ..، قصة تلك الشابة الحسناء التى تسير فى الحقول ليلًا تنادى الشباب - الذكور طبعًا - كى يلحقوا بها .. ويهرع الشاب إلى أحضانها ، وهنا تتحول إلى حقيقتها .. غول مرعب شرس يفترس الفتى فلا يسمع عنه أحد بعدها ..

لكم أرقتنا هذه القصة ..!، ولكم تخيلنا تفاصيلها الشنيعة فى مئات الصور المرعبة ، ومازلت - بعد كل هذه السنين - أتذكر صوت جدتى الخشن الخفيض يردد فى حزن ذلك الموّال :

فين الولد يا امّه؟ قالت نسي أهله
فات البلد لما الغولة نادت له

★ ★ ★

فين الولد يا ولاد؟ قالوا الولد مسحور
سافر وراها بلاد وآدى السنين بتدور

يالها من قصة !.. واليوم تبعث هنالك من فصوص مخى الخلفية .. والغريب أنها تعود إلىّ فى هذا الوقت .. ومع أخى بالذات !..

ـ هل .. هل تعنين النداهة ؟

ـ نعم !..

ـ النداهة .. المرأة التى تنادى الشباب و ...؟

ـ نعم .. زين الشباب ..

ألقيت باللقمة التى فى يدى على الطبلية ، ونهضت فى حنق :

ـ ماذا تعنين بهذا الكلام الفارغ ؟!

قالت أمى بعين دامعة :

ـ أقسم على هذا .

ـ ولكن لا يوجد شىء كهذا ..

ـ يوجد يا بنى .. يوجد .. هل نسيت كلمات جدتك أم أن الإقامة فى مصر قد جعلتك تنسى كل شىء ؟!

آه .. يا لهذه النغمة التى كنت أخشاها ..!، مرة أخرى تذكرنى أمى أننى تغيرت حتمًا ، وأننى أعتقد أننى أكبر وأفضل من كل معتقدات أهلى .. وهذا ـ بالطبع ـ ليس صحيحًا .. لا يجب أن أظل مؤمنًا بالغولة والنداهة والحطمة لكى أثبت لهم أننى لم أتغير ..

ـ حسن .. كيف نادته ؟

ـ نادته .. وهذا كل شىء ..

ـ وهو .. هل هو موجود أم ماذا ؟!.. هل اختفى ؟!.

ـ إنه فى بيته .. لكنه تغير .. لم يعد يكلم أحدًا ، ولا يأكل ولا يشرب ..

ـ لكن هذا لايدل على شىء ..

ـ إنه ينتظر نداءها الثانى ليلحق بها للأبد ..

يا للجنون !.. الهراء الذى يطاردنى فى انجلترا ورومانيا وحتى هنا فى قريتى حيث ظننت أنى سأنال بعض الراحة النفسية ..، يجب أن أحقق فى الموضوع بهدوء ودون انفعال ، يجب ألا أسمح لنفسى أن أصرخ فى هاتين البائستين ..

ـ حسن ..

قلتها فى استسلام .. وأردفت :

ـ أريد أن أراه فهل هذا مسموح به على الأقل؟

★ ★ ★

ذهبت لدار أخى المصنوعة من الطوب الأحمر وعلى بابها كفوف مفتوحة حمراء لمنع الحسد مع بعض العبارات التى تحاول طرد الحاسدين .. وقرعت الباب فى حزم ..

انفتح الباب عن زوجة أخى بوجهها الصارم المتعالى ، وما إن رأتنى حتى رسمت ابتسامة قاسية على شفتيها .. ورحبت بى فى فتور :


جلست جواره فى هدوء وتأملته .. كان يرتدى جلبابًا أزرق متسخًا .. ورأسه عار .. وفى عينيه نظرة تائهة ترمق أبعادًا أخرى لا نعرفها ..

ـ أهلًا يادكتور .. الحمد لله على السلامة ..

وقادتنى للداخل .. وكان هناك ثلاثة أطفال يلعبون فى صحن الدار توقفوا عن اللعب ، وأخذوا يرمقوننى بعيون فضولية واسعة ..

ـ هيا يا أولاد .. سلموا على عمكم ..

امتد كفان صغيران يصافحاننى فى حين توارى الثالث فى خجل مذعور برغم لوم والدته له ، تمتمت ببعض كلمات الإطراء على نمو الأطفال وظرفهم .. ثم سرت خلفها إلى غرفة النوم ..

هناك ـ على الفراش ـ كان جالسًا .. (رضا) أخى وقد انثنى على نفسه منطويًا .. وكان الليل قد بدأ يحل مما جعل الرؤية عسيرة نوعًا ..

ـ (رضا) .. لقد جاء أخوك الدكتور (رفعت) .. هيا رحّب به ..

لم يردّ ..

ـ (رضا) .. لقد جاء من مصر خصيصًا من أجلك ..

استمر الصمت .. جلست جواره فى هدوء وتأملته .. كان يرتدى جلبابًا أزرق متسخًا .. ورأسه عار .. وفى عينيه نظرة تائهة ترمق أبعادًا أخرى لانعرفها ..

لم يتغير كثيرًا ومازلت أرى ملامحى فى ملامحه .. لكن ماذا دهاه ؟

- (رضا) .. ألا تعرفنى ؟

لم يبد عليه أنه سمعنى فضلًا عن أنه عرفنى أساسًا .. ربّت على كتفه والتفت إلى زوجته حيث وقفت ويداها فى وسطها ..

- منذ متى ؟

- منذ أسبوع ..

- وماذا حدث ..؟!.

قالت وهى تشعل لمبة الجاز لتبدد بعض ظلام الحجرة مضيفة - فى الواقع - ظلالًا كئيبة زادت الجوّ توترًا :

- كنا قد نمنا .. ثم سمعت صوتًا ينادى (رضا) .. (رضا)!.. صوت امرأة قادمًا من الحقل القبلى ، نهض هو مصرًا على أن يرى ما يحدث .. قلت له إنها النداهة يا (رضا) .. لاتذهب يا (رضا) ، لكنه أصرّ على أن يذهب.. وها هى ذى النتيجة ..

- وهل عاد لك بعدها ؟

- كلا .. تأخر كثيرًا .. فخرجت للحقل وحدى حاملة لمبة الجاز ، وهناك وجدته واقفًا وحيدًا لايرد .. عدت به إلى البيت ومنذ تلك الساعة وهو فى هذه الحال ..

- وهل هو لايأكل فعلًا ؟

- تقريبًا ... أحيانًا أدسّ الطعام فى فمه كالأطفال أو كالبط ! ويظل الطعام فى فمه دون مضغ عدة ساعات ..

- وقضاء الحاجة ..؟

- حيث هو ..!

وفجأة - ودون إنذار - انفجرت باكية والدموع تختلط بكلماتها :

- لقد ضاع رجلى !.. لقد انتهى ..!.. ياليته ما خرج.. ياليته ما سمعها ..!.. ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل ؟

ثم شرعت فى هستيريا تسبّه على حماقته وتسبّ الظروف التى جعلته - هو بالذات - ضحية النداهة ، ثم تسبّ النداهة ... ثم تسبنى أنا نفسى لأننى ... لا أدرى بالضبط ما شأنى فى الموضوع لكنها رأت أن لى دورًا ما ، لا تعرف كنهه ويستحق التوبيخ .. ربما لأنها كانت تفضل أن أكون أنا فى مكانه .. أن تمتعى بكامل قواى العقلية هو فى رأيها جريمة لاتُغتفر ..! ولا ألومها على هذا ..

ثم تهالكت فأجلستها جوار (رضا) وربتّ على ذراعها... ما أغرب هذه المرأة !.. كل هذه العواطف كانت مختفية وراء مظهرها الصارم المتعالى ..

- ماذا أفعل بكوم اللحم الذى تركه لى ؟!

الواقع أنها كانت بالفعل فى موقف لاتحسد عليه لأن

أخى كان رجل البيت بمعنى الكلمة .. يفعل كل شىء ويعرف كل شىء ، ومن دونه هى ضائعة تمامًا ..

ـ إنه لم يمت يا نجاة .. لم يمت ..

ـ بل هو ميت فعلًا ..

ـ إنه مريض .. وسيشفى ..

ـ كلا .. أنا أعرف مصير من نادتهم النداهة ... سيظل هكذا أسبوعين أو ثلاثة .. وبعد هذا تناديه للمرة الثانية ، عندئذ يفارق الدار للأبد ولن يراه أحد بعدها ..

ـ كلا .. لن يحدث هذا وأنا حىّ ... لن يَمَسّ أخى بشرٌ أبدًا ..

ونهضت فى تصميم .. وقد تذكرتها هى الأخرى ... فأكملت :

ـ ولن يمس زوجة أخى سوء طالما أنا على وجه الأرض ..

* * *

كان الظلام قد أرخى سدوله على القرية .. والنجوم شديدة الوضوح فى السماء كأنها ثقوب فى ثوب أسود يغطى الكون ، كل الموجودات قد بردت واصطبغت بلون أزرق قاس ... ووجوه مكسوة بالظلام تمر من جوارى تقرئنى السلام فأرد بعبارات مختلطة وذهنى شارد ..

ما هى هذه الأعراض ؟!

إن هذه الصورة تشابه إلى حدّ ما أعراض الاكتئاب التفاعلى الحاد أو صدمة عاطفية أو مرضًا نفسيًا ما ، لا أعرفه لأنى لا أعرف سوى أقل القليل عن هذه الاضطرابات ..

وفى تلك الأيام السعيدة لم تكن المخدرات معروفة بصورتها البشعة التى نعرفها اليوم ... لهذا استبعدتها على الفور وإن كنت لا أنكر تشابه هذه الأعراض مع تسمم الباربيتيورات المزمن .. لكن أخى لم يكن من النوع الذى يدمن .. ولم يكن سهل الخداع أبدًا ..

هل هو مرض عضوى ما لا أعرفه ؟.. هل هو جنون ذهولى متقدم ؟ هل هو ؟.. هل هو ؟.. لا إجابة ..

هناك شىء واحد أعرفه .. إن واجبى هو أن أجلب بعض زملائى من أساتذة الجامعة ليروه .. وأنا واثق أنهم سيجدون مصطلحًا لاتينيًا من عشرة أحرف على الأقل يسمون به هذا المرض .. وسيصفون بعض الأقراص والحقن تعيد أخى إلى حالته الأولى ..

نعم .. كنت أعرف ما ينبغى علىّ عمله ..

* * *

٣ ـ ثرثرة ..

وقفت (نجاة) مذهولة ترقب ما يحدث ، فى حين وقف أطفالها فى استمتاع واضح يراقبون هذا السيرك الذى يدور أمامهم ..

وعلى الفراش الخشبى تمدد أخى (رضا) ذاهلاً لايدرى شيئًا مما يحدث له ، فى حين انكب زملائى ـ علماء الطب ـ يفحصون كل ملليمتر من جسده القوى ..

دكتور (عادل شلبى) أستاذ الأمراض الباطنية قاس حرارته وضغط دمه ووضع سماعة على صدره وبطنه ثم هز رأسه وجمع حاجياته ونهض ..

الدكتور (محمود الأسيوطى) أستاذ الأمراض العصبية وخزه بدبوس عدة مرات وضربه بمطرقته مرارًا وتحسس عضلات فكيه ثم ترك المجال للدكتور (محمد إبراهيم) أستاذ الأمراض النفسية الذى أخذ يرمقه فى شك ، وأخذ يسأل (نجاة) أسئلة محمومة لاينتظر إجابتها عن أخى .. وهل كان يميل للوحدة .. وعلاقة أمى بأبى .. و ... و ...

ثم جاء دورى فمددت يدى بمحقن عملاق وسحبت من ذراعه عشرة سنتيمترات من الدم وضعتها فى أنبوب اختبار به مادة مانعة للتجلط وأصدرت لتلميذى الدكتور

(علاء) قائمة طويلة من الفحوص يقوم بها حين يعود لمعمله فى القاهرة ..

ثم إننى خرجت معهم إلى صحن الدار وأجلستهم كيفما اتفق حول أكواب الشاى الأسود التى أعدتها زوجة أخى ... وقلت فى حرج :

ـ إننى أشكركم على مشقة السفر وكل الوقت الذى أضعتموه من أجلى ..

قال د . (محمود) وهو يرشف الشاى :

ـ لامجاملات بيننا أيها الزميل .. لامجاملات ..

وقال د . (عادل) :

ـ إن هذا هو واجب المهنة .. سكر من فضلك !

ناولته علبة السكر والملعقة ، ثم تنحنحت وقلت :

ـ والآن .. هل كونتم رأيًا ما ؟

ساد الصمت برهة .. ثم قال د . (عادل) فى كياسة :

ـ من ناحيتى لاتوجد مشكلة .. إنه سليم تمامًا ..وجهازه العصبى متكامل..وهذه ليست أعراضًا نفسية لها اسم !

ولكن .. هذا يعنى .. إذا زعم هؤلاء الزملاء أنه لامشكلة هنالك فأنا كفيل بجعلهم يعيشون فى مشكلة حقيقية ..!

- ولكن .. لابد أن هناك شيئا ما خطأ ..

قال د . (محمد إبراهيم) وهو يشعل غليونه :

- بالطبع ..

- وهذا الشيء له اسم ..

- بالطبع ... وهو إلى حد ما يشابه أعراض الاكتئاب أو فقدان النطق الهستيرى لكن ما هو بالفعل ؟.. لايستطيع أحد أن يجزم ..

- إذن فمن يستطيع ؟

قال وهو ينفث دخان الغليون كريه الرائحة محدثًا سحبًا كثيفة :

- المشكلة هى أننا لانعرف شيئا عما سبق هذه الحالة .. الملابسات التى أدت إليها ... ولا نملك أية قصة سوى قصة زوجته الملفقة التى يعوزها الدليل العلمى ..

ثم أشار إلىّ بفم غليونه .. وأردف :

- مثلا هل ستحكى لك هذه السيدة أية صدمة عاطفية سببتها له فى تلك الليلة المشئومة ؟!.. هل لديها فكرة عن أزماته المالية أو مشاحناته أو هزائمه ؟!..

قال د . (عادل) مكملا الكلام :

- هل تعرف - وهو الأهم - أية عقاقير يتعاطاها ؟!

قلت فى حنق :

- وهل تجد أية علامات لإدمان مخدر معروف ؟.. مخدر لايؤثر فى حدقة العين ولافى الجهاز العصبى ولافى العلامات الحيوية ؟

- وهل أنت ملمّ بكل أنواع المخدرات ؟

- على الأقل أعرف منها ما يحتمل أن يوجد فى قرية كهذه .. ثم إننى أعرف أخى جيدًا .. إنه لايدخن ولايتعاطى حتى الأسبرين ، وهو حذر جدًّا بحيث لايمكن أن يدسّ له أحدهم شيئا منها فى طعامه ..

- إذن فالحل الصحيح هو عند زوجته ..

تنحنح د . (محمود) معلنا رغبته فى الكلام ..

- إذا أردت رأيى .. هل يمكننى الكلام بصراحة ؟

- بالطبع ..

قال وهو يحاول أن يتحاشى نظراتنا المتشككة :

- أنا لست مستريحًا لهذه المرأة القاسية المتسلطة ، وأعتقد أنها تمارس لعبة نفسية ما ، مع أخيك أدت لتحطيمه بهذه الصورة ..

قلت وأنا أمد يدى لكوب الشاى :

- لكنك لم تعرف أخى .. إنه هو رجل البيت بمعنى الكلمة ، كل ما فى الأمر أنه يحبها ويحاول إرضاءها قدر استطاعته ..

- هذا لايمنع أنها تسيطر عليه ..
- ثم إنها الآن فى موقف لاتحسد عليه .. ، ليس من مصلحتها أبدا أن يفقد زوجها وعيه خاصة فى هذه الأيام ..

قال د. (عادل) وهو يعيد كوبه للصينية متمتمًا بعبارة شكر :

- على العموم .. هى مجرد آراء .. ، والآن علينا أن ننصرف .. لقد حان موعد عيادتى .. ، وأمامنا رحلة عودة شاقة ..!
- ولكننا سنتغدى سويًا ..
- كلا .. ليكن هذا فى ظروف أخرى إن شاء الله ..

وهكذا - وفى صمت - أركبتهم فى سيارتى وبدأنا رحلة العودة الشاقة إلى القاهرة ، كنت محرجًا منهم فلم أجرؤ أن أصارحهم بأن فحصهم لأخى وآراءهم لم تزد الأمر إلا سوءًا .. وأن ما قدموه لى لا يساوى ثمن البنزين الذى بذلته فى هذه الرحلة الرهيبة ..

لقد وضعت مشكلتى فى أيدى ثلاثة من أساطين الطب فى مصر فأعادوها إلىّ قائلين إنها مشكلتى أنا .. يا له من شعور مرعب !.. إذن فأنا وحدى .. وحدى تمامًا ..

وعند مدخل عيادته فى باب اللوق نزل د. (محمد إبراهيم) من السيارة وسط بحر من عبارات شكرى ، واتجه للمدخل .. ثم تذكر شيئًا ما فعاد إلىّ وانحنى فوق نافذة السيارة هامسًا لى :

- هل تعرف ؟!
- ماذا ؟
- لو كنت مكانك لفكرت فى أسطورة النداهة بشكل أكثر جدية .. ألم يخطر لك أن أخاك قد نادته النداهة بالفعل ؟

★ ★ ★

عدت للقرية شارد الذهن ، وكان الليل قد أرخى سدوله بظلام لم أعتده أبدًا فى القاهرة .. ظلام ثقيل لزج يخنق الأنفاس .. ولايفلح نور كشافات سيارتى فى تبديده إلا قليلًا ..

وصلت لدار أخى فقرعت الباب .. أدخلتنى (نجاة) وقد بدا بعض الشحوب على وجهها وفى لهفة سألتنى :

- هيه ؟.. ماذا قالوا ؟

هززت كتفى فى يأس .. ثم قلت فى شرود :

- لا شىء .. حالة نفسية لا أكثر ..
- ألم ينصحوك بشىء ؟



اقتربت منه فى تؤدة ووضعت يدى على كتفه فلم يهتز ولم يبد عليه شىء ..

ـ أشياء تهم الأطباء فقط .. ولكن لماذا تسألين ؟

قالت فى لهفة ذات معنى :

ـ يخيل لى أن هذه هى الليلة ..!

ـ ليلة ماذا ؟

ـ ليلة الرحيل ..!

ـ اسمعينى يا (نجاة) .. لن نعود لهذا مرة أخرى ..

ـ لن أتكلم .. تعال للداخل وانظر ..

تبعتها فى توجس وهى تحمل لمبة الجاز وظلها يسقط خلفها على الأرض طويلا مهيبًا مرعبًا .. معها دخلت غرفة النوم فلم أجد (رضا) فى الفراش ..

ـ إذن أين هو ؟!

أشارت بأصبع مرتجفة إلى النافذة .. النافذة المطلة على الحقل القبلى المظلم .. هناك كان واقفًا ينظر إلى الظلام فى ثبات وظهره لنا ، لم يشعر بوجود أحدنا قط .. اقتربت منه فى تؤدة ووضعت يدى على كتفه فلم يهتز ولم يبد عليه شىء .. عيناه شاخصتان خرساوان وثمة رجفة فى شفتيه كأنه يعتزم أمرًا ..

ـ هل رأيت ؟.. منذ انصرف الحكماء وهو هكذا ..

قلت فى ضيق :

ـ وما هى المشكلة ؟.. إنه مريض لا أكثر ..

مصمصتْ بشفتيها متصعبة .. وقالت :

ـ كلهم يحدث لهم نفس الشيء .. إنه ينتظر النداء الثاني ..

ـ (نجاة) .. لاداعي للتخريف ..

ثم إنني نهضت إلى حقيبتي التي نسيتها في غرفته ، وأخذت منها محقنا وطلبت منها غليه (في تلك الأيام السعيدة قبل اختراع الايدز والتهاب الكبد الفيروسي كنا نغلي المحاقن الزجاجية) ، ثم كسرت أمبولاً من الفينوباربيتون(*) وتناولت ذراعه وأفرغت محتوى الأمبول في وريده .. لم يقاومني كأن الإبرة تخترق عروق شخص آخر ..

بعد قليل بدأت جفونه تنثني وجسده يتراخى ، من ثم نظرت إليها في ارتياح .. وقلت :

ـ ها هو ذا .. سينام نومًا هادئا حتى الصباح ..

ـ أكيد ؟

ـ طبعًا .. حتى نداهتك لن تستطيع إيقاظه ..

وتعاونا على إرقاده على الفراش ، ثم جمعت حاجياتي وهممت بالانصراف ولم تحاول أن تدعوني للبقاء معه ولم أكن لأقبل لو فعلت ..

(*) عقار منوم .

في الخارج كان الظلام الدامس مخيمًا وصوت حشرات الحقول يتعالى في إيقاع رتيب .. أغلقت باب السيارة وأدرت المحرك .. هل هذا الصوت الغريب قادم من المحرك أم ماذا ؟!.. كلا .. ليس هو المحرك ..

هذا الصوت قادم من بعيد .. من الحقل القبلي .. صوت عميق رقيق كأنه امرأة تتوجع .. ببطء ومع الضغط على مقاطع النداء ..

ـ رااااح ..!.. رااااح ..!

كلا.. ليس ما تقوله هو هذا .. أوقفت المحرك لأسمع بصوت أوضح نعم .. أكاد أقسم أن هذا الصوت القادم من الظلام .. من الحقول البعيدة التي لايجرؤ إنسان أن يمشي فيها ليلًا مهما كان معه من مصابيح ، هذا الصوت يردد في إصرار محموم :

ـ (رضا اااه) .. (رضا اااه) !

★ ★ ★

٤ ـ مرضى آخرون ..

والآن لابد لكم أن تعترفوا بأننى قوى الأعصاب إلى حد غير عادى وأن إيمانى بالعلم لايتزعزع ، لأنى ـ ببساطة ـ بعد أن سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت لم أهتز قط .. وعدت إلى دارنا لأنام ..!

إننى لا أتصور أى أحمق كنته فى تلك الأيام ..

على أننى فى الصباح الباكر لم أنس أن أمرّ على بيت أخى لأسأل زوجته عن حاله ، فقالت وقد أشرق وجهها :

ـ الحمد لله ..

ـ لم يستيقظ ليلا ؟

ـ نادته النداهة عدة مرات فكان يتقلب فى الفراش لكنه لم ينهض ..!

ـ رائع !

قالت لى وقد بدا عليها الشرود .

ـ لماذا لاتعطيه هذا العلاج ..الحقنة .. كل ليلة ؟

فكرة لابأس بها .. لكنها ليست حلا على الإطلاق ، ليس انتصارًا أن يقضى إنسان حياته تحت تأثير الفينوباربيتون حتى لايسمع صوت النداهة ، دعك من أنها جريمة .. جريمة أن تدفع إنسانًا للإدمان لمجرد أن تطمئن أنت ... ولكن ماذا نفعل كى لا يهرب ؟!

ابتسمت فى شفقة ، وحييتها وانصرفت ..

* * *

كما هو متوقع انتشر خبر عودتى للقرية كالنار فى الهشيم ... وعلى الفور ازدحم الفناء الضيق لدارنا بأهالى القرية الذين جاءوا حاملين أوجاعهم على أكتافهم والأمهات اللواتى يعانى أطفالهن الإسهال والمراهقات اللواتى يؤرقهن النمش على خدودهن ..

الواقع أن كل مخلوق فى القرية فتش فى جسده عن علة ما تسمح له بالحضور لأفحصه ، وبالطبع لم أتذمر ولم أتقاض مليمًا لأن هذا هو حق أهل قريتى الذى لا جدال فيه ..

لقد جعلنى هذا أتذكر شبابى الأول كطبيب وحدة ريفية ..

وفى الحجرة التى على يمين الداخل لدارنا أعددت ما يشبه عيادة خارجية صغيرة ، وشرعت أمارس أسرار مهنتى المقدسة فى حين أخذت أختى تعد الشاى لعينات منتقاة من الزائرين ..

وعند العصر كان ضغط العمل قد ركد .. وكنت أنا قد انتهيت .. فأزمعت الصعود إلى حجرتى للراحة توطئة لأن أذهب لأخى (رضا) ليلا ..

انفتح الباب ودخل ثلاثة رجال يبدو عليهم التردد ...، وقال لى أكبرهم سنًا :

- نحن نريدك فى زيارة منزلية يا دكتور ..

ابتسمت وهززت رأسى :

- هل يمكن تأجيل هذا إلى المساء ؟.. إننى ..

- أرجوك ..

قالها فى صوت عميق أقرب للأمر ، وتبادلوا النظرات المريبة فيما بينهم .. هؤلاء الرجال يخفون شيئًا مريبًا ، وهو - كالعادة فى الأفلام السينمائية - واحد منهم مصاب بطلق نارى فى أثناء معركة مع البوليس !.. لكننا لسنا فى فيلم سينمائى لهذا حاولت مرة أخرى التملص :

- عندكم الوحدة الصحية ،و ....

- أى مبلغ تريد ..

إنهم مصرّون !.. على كل حال فإن فلاحى الشرقية مسالمون وكرماء .. ولاجدوى هنالك من رفض رؤية مريضهم هذا لأنهم مصرّون كالموت ذاته .. وأنا لاأحب الشجار .. على الأقل مع أهل قريتى ..

- إذن هيا بنا ..

وحملت حقيبتى .. وخرجت معهم ..

* * *

- تفضل يا بيه ..

ثمة امرأة تخفى وجهها بطرحة سوداء ، وعدد لابأس به من الرجال جالسون فى وجوم وصمت يدخنـــون ويتبادلون نظرات ذات معنى ... ثم نفس تصميم الغرف الطينية الموجودة فى دارنا .. والبط الذى يمرح بحرية تامة ... وكان هناك مدخل كريه الرائحة يقود لغرفة جانبية مفروشة بالحصير ، وعلى الأرض تمدد شاب وسيم فى مقتبل العمر يحدق فى السقف بعينين لاتطرفان ... سألتهم وأنا أنظر للشاب :

- هل هو المريض ؟!

لم يرد أحد تعبيرًا منهم عن بلاهة سؤالى ، فقررت أن أزيد الأمر سوءًا بسؤال أكثر سخفًا ..

- ماذا به ؟

- كما ترى ..!

- منذ متى ..؟

- أسبوع ..

انحنيت عليه فلم أستطع فحصه ، اضطررت إلى الركوع جواره وبدأت بمحاولة تنبيهه فلم أفلح .. نفس الأعراض اللعينة ... هل هو وباء يجتاح القرية ..؟ مددت يدى لمعصمه لأقيس نبضه فوجدت شيئًا مروعًا .. حيل

من الليف حول معصمه يثبته إلى وتد خشبى مدقوق فى الأرض ، لقد قيدوا هذا الفتى كحيوان مفترس كى لايفر .. ويالها من فكرة !

رفعت عينى إلى الرجال الواقفين حولى وسألت :

ـ هل .. هل نادته النداهة ؟!!

تبادلوا نظرات التقدير لى ، ثم قال أكبرهم وقد انبسطت أساريره :

ـ أمه تقول هذا .. لقد سمعتها ..

ـ ولماذا استدعيتمونى إذن ؟

ـ كى تثبت هذا أو تنفيه ..

أثبت هذا ؟.. وكيف أثبت هذا وأنا لا أصدق منه حرفًا ؟! وفى أى كتاب علمى نجد وصفًا دقيقًا لأعراض مرض (النداهة) ؟!.. تأملت الفتى المقيد فى رهبة .. إنها أسطورة مرعبة .. وفكرة هذا القيد البشع تزيد الرعب ، جالت بخاطرى رحلة (أوليس)(*) حين كان عليه المرور أمام صخرة عرائس البحر اللواتى يفتن غناؤهن

(*) (أوليس) أو (أوديسيوس) بطل ملحمتى هوميروس (الإلياذة) و (الأوديسة) اللتين تتحدثان عن حربه فى طروادة ثم عودته الشاقة إلى زوجته المخلصة (بنيلوبى) .

البحارة فيرمون بأنفسهم فى الماء ليغرقوا .. اضطر (أوليس) إلى تقييد نفسه ورفاقه بالسلاسل إلى صوارى السفينة حتى لا يلبوا نداء عرائس البحر الفاتن ... إن السلوك البشرى الأسطورى يتشابه فى محافظة الشرقية وفى بلاد الإغريق !!

ما علينا ..

واصلت فحص الفتى ... وعريت الجلباب عن بطنه فوجدت شيئًا ما .. آثار أنياب حادة مزقت اللحم أسفل الصرة لكنها التأمت تمامًا ... وهكذا بدأت أفهم ما هنالك ... سألت الرجال فى حذر ..

ـ هل يشرب ؟

ـ لا .. إنه يرفض الماء تمامًا ..

ـ إذن هاتوا لى بعض الماء ..

جروا ـ فى حماسة مبالغ فيها ـ ليحضروا لى قلة الماء ... ناولوها لى فى شك مندهشين من تحمسى للشرب فى هذه الظروف ..

أمسكت بالقلة وقربتها من وجهه ثم بدأت أسكب الماء ببطء أمام عينيه المذعورتين .. وكما توقعت بدأ وجهه يتقلص .. نظرة مريعة فى عينيه .. صرخة صامتة على شفتيه ... ثم نهض جالسًا وهو يعوى ويئن كالذئب الجريح ..

أبعدت القلة عنه وشرعت أهدئه ..

نهضت وجمعت حاجياتى فى صمت ، ثم أشرت لأكبر الرجال كى يتبعنى للخارج ، وهناك أمام عيون كل الواقفين قلت له :

- ليس هذا نداء النداهة ياحاج ..

- إذن ما هو ؟

- إنه مصاب بالكلب ..

- الكلب ..؟!

- نعم .. حيوان مسعور عضه فى بطنه منذ بضعة أيام(*) !

- لم يحدث ..

- بل حدث ، ولربما تجاهل هو الأمر ولم يأخذ المصل المضاد لذلك .. والآن هو فى مراحل المرض الأخيرة ..

- وموضوع الماء ؟

- هذا المرض كان يسمى قديمًا بمرض (خوف الماء) لأن المريض يهتاج من صوت الماء أو منظره ويتشنج بهذا الشكل الشنيع ، وكذلك تيارات الهواء تحدث تقلصات بلعومية شديدة ..

(*) قد يحدث مرض الكلب نتيجة عضة الثعلب أو الفأر أو السنجاب أو الجمل وليس بالضرورة الكلب .

وأشعلت سيجارة مستطردًا وشاعرًا بالفخر من نفسى :

- وهذا الذهول هو عرض التهاب المخ المصاحب للمرض ..

لم يبد عليه أنه فهم حرفًا مما قلت .. ولم يكن يعنيه أن يفهم ، كل ما كان يريده هو أن يعرف : ماذا يفعل ؟

- يجب نقله فورًا إلى إحدى مستشفيات الحميات بالزقازيق ..

- ولكن ..

- فورًا ..!.. إن احتمال نجاته لايتعدى النصف بالمئة لكن يجب أن تحاول ..

- ولكن ..

- فورًا ..!.. إن حياة هذا الفتى بين أيدكم الآن ..

قال أحدهم فى فظاظة وتحد .

- لكن أمه سمعت النداهة يادكتور ..

التفت إليه فى غيظ وصحت :

- إذا اعتقدتم فى وجود النداهة فهذا شأنكم ، لكن هذا الفتى مسعور .. هل تفهمون هذا ؟.. ولن يعيش ليرى صلاة الجمعة القادمة !

- والعمل ؟

- سبحان الله !.. قلت لكم مستشفى الحميات !

ودارت مناقشات جانبية شديدة الحمق والغباء ... من الواضح أنهم لن يأخذوه لأى مكان وأننى سأضطر إلى إبلاغ المركز عن احتجازهم لمريض فى حالة خطرة ، لكننى ـ فى قرارة نفسى ـ وددت لو كان بإمكانى أن أجد تفسيرًا لحالة أخى بهذه السرعة والسهولة .. أعرف أن أحدًا لم ينجو من مرض الكلب فى تاريخ الطب حتى اليوم ، لكن رغبتى فى إيجاد حل لمشكلة أخى كانت شديدة الإلحاح ..

انتهت المناقشات ، من ثم تقدم أكبر الرجال إلى وصافحنى فى حزم :

ـ شكرًا يادكتور .. والآن كم أتعابك ؟!

طلبت رقمًا فادحًا لأننى أحسست أن من واجبى أن أنتقم من هؤلاء الحمقى إلا أنه دفعه عن طيب خاطر ، وأمر أحدهم كى يرافقنى إلى دارى ، قبل أن أنصرف قال لى :

ـ أنصحك أن تؤمن بالنداهة لأنها لاتنادى إلا من لايصدقون وجودها !!

* * *

٥ ـ الدكتــور (عاصم) ..

كان الوقت يقترب من السابعة مساء حين اتجهت بسيارتى للوحدة الصحية فى قريتى ، وهى مبنى عتيق متهدم كادت الرطوبة تأتى على جدرانه ، وواحد من مئات المبانى المماثلة على شكل حرف (ت) الإنجليزى تملأ ريفنا الطيب ، وتقدم للفلاحين خدمات محدودة جدًا ..

لم يكن هنالك عمال ولا خفراء من ثم صعدت فى السلم المتحطم إلى الطابق العلوى حيث سكن الطبيب ، وقرعت الباب فى كياسة ..

ـ لحظة ..

وسمعت خطوات بالداخل ، ثم انفتح مزلاج حديدى .. وتبدى لى وجه الطبيب فى ضوء مصباح الجاز الذى يحمله .. كان شابًا فى منتصف العقد الثالث من عمره لكن شعر رأسه قد زال أو كاد .. وعلى عينيه نظارة سميكة جعلت جفونه تبدو أصغر وأضيق مما هى عليه ، وكانت ذقنه نصف نامية ..

ـ أفندم ؟

ـ قمت بتعريفه على نفسى .. فابتسم لى فى مودة ، ودعانى للداخل وهو يصيح :

- عرفت الآن لماذا لم أر مريضًا واحدًا فى هذا اليوم اللعين !

وقادنى إلى غرفة نظيفة بها فراش جواره بعض الكتب والمجلات ، وموقد كيروسين عليه وعاء شاى آخذ فى الغليان ، وعلى الحائط تحرك برص صغير أزعجته أصواتنا !. من الواضح أن الطبيب كان راقدًا فى الفراش يقرأ حين أتيت ..

فى حرج أزاح جزءًا من الملاءة ليسمح لى بالجلوس على الفراش ، ثم شرع يزيد كمية الشاى فى البراد ، وخلع شبشبه وتربع جوارى على الفراش وهو يسبّ عمال الوحدة سبابًا مقذعًا لسبب لم أفهم ما هو ، الخلاصة أن استقباله كان شديد المودة على قدر إمكانياته ..

قال لى .

- أنا الدكتور (عاصم فتحى) .. هذا ثالث عام لى فى هذه القرية .. إننى سمعت عنك يا دكتور (رفعت) الكثير .. الكثير جدًا ..

هززت رأسى فى تواضع وقلت :

- لقد جئت لاستشارتك فى أمر صغير ..

ضحكت فى سرور :

- الأستاذ العظيم يطلب استشارتى ..!.. يالى من محظوظ !

قلت فى جدية :

- الأمر جد لامزاح فيه ..

- وما هو ؟

حكيت له قصة مريض الكلب وموقف أهله ، ثم سألته :

- ما هو التصرف الإدارى فى حالة كهذه ؟!

نهض ليصب الشاى فى كوبين محدثًا قرقرة محببة للنفس .. وقال :

- كم ملعقة سكر ؟.. اثنين ؟.. حسن .. كنت أقول إن التصرف الصحيح هو إبلاغ المركز ويتم ترحيل المريض إلى مستشفى الحميات وعمل محضر لأهله ..

هذا هو الحل الصائب .. ولكن ..

- ولكن ماذا ؟

نظر لى نظرة حادة وهمس :

- هل تتوقع فائدة ما من هذا ؟!.. مريض كلب فى آخر مراحل المرض ..

- وما معنى هذا ..؟

- معناه أنك ستسبب مشاكل لاحصر لها لأهله ، كفاهم ما هم فيه ..

- وتتركه يموت ؟

- إنه سيموت على كل حال ... أنت - كما يقولون - ابن القرية لكنك لاتعرفها ..



نهض ليصب الشاى فى كوبين محدثًا قرقرة محببة للنفس .. وقال :
ـ كم ملعقة سكر ؟..

وناولنى كوب الشاى ، ثم تنهد .. وأردف :

ـ فى الريف يجب أن يتحلّى المرء بشىء من المرونة .. إن لهذه القرية قانونها الخاص غير المكتوب ..

تأملت الغرفة حولى مفكرًا .. إن فى كلام هذا الفتى شيئًا من المنطق لكن مشكلتى لم تنته بعد .. قلت له وأنا أرشف الشاى :

ـ هل سمعت عن النداهة ؟

هز رأسه .. وشبح ابتسامة تتلاعب على ثغره .. واصلت السؤال :

ـ هل قابلتك حالات مماثلة ؟!

ازدادت الابتسامة اتساعًا .. ثم إنه نهض إلى مقعد خشبى صغير جوار الفراش تكدست عليه الكتب والأوراق ، وتناول كراسة صغيرة مهترئة الغلاف .. وعاد للفراش .. وقال :

ـ سأريك الآن شيئًا لم يطلع عليه أحد من قبل ..

ـ وما هو ؟

ـ إنها كراسة مذكراتى ..

وشرع يقلب الكراسة .. أوراق عديدة بخط صغير أنيق مليئة بكلام فارغ .. رسوم لوجوه فتيات ، وأبيات شعر ..

وكلام عن ألمه وعذابه وندمه على أشياء كثيرة لايهمنى أن أعرفها .. بالكارثة !.. من المستحيل أن يقاوم إغراء قراءة كتاباته على أذنى العجوز المنهكة .. فلقد ألقى إليه القدر بمستمع معتوه فى الثامنة مساء وهو لن يتركه يفلت أبدًا !

إلا أنه لم يتل علىّ شيئًا لحسن الحظ .. بل قلب الكراسة إلى صفحتين فى المنتصف .. وشرع يقرأ وهو ينظر إلىّ من حين لآخر :

ـ فى أكتوبر ٦١ أصيب (الزغبى) فرحات وهو فلاح فى السادسة والثلاثين من عمره بمرض غريب ..

الأعراض : شرود تام ، وانفصال عن الواقع .. لايأكل ولايشرب ولايتكلم ..

الفحص : كل العلامات الحيوية سليمة .. الحالة العصبية سليمة .. لاتوجد علامات لعقاقير مخدرة من أى نوع ..

الأبحاث : السكر ووظائف الكلى والسائل النخاعى الشوكى على مايرام ..

تاريخ الحالة : يزعم أهل المريض أنهم سمعوا نداء امرأة يدعوه باسمه قبل ظهور الحالة بدقائق ..

فى نوفمبر ٦١ نام أهل البيت ، وحين استيقظوا لم يجدوا المريض فى البيت ولافى أى مكان ..

ثم إنه قلب الصفحة إلى صفحة أخرى .. ورشف جرعة من الشاى .

ـ فى فبراير ٦٢ تتكرر القصة مع (سعيد جابر) .. عامل بناء فى الخامسة والعشرين ... نفس الأعراض .. وكل شىء ..

فى مارس ٦٢ .. حادثة مماثلة تحدث (لابراهيم السقا) .. مراهق فى الثالثة عشرة من عمره ..

فى ابريل ٦٢ .. (رضا إسماعيل) ، فلاح فى الرابعة والثلاثين .. هو فى غيبوبة الآن لكنه لم يفرّ بعد ..

فى كل حادثة من هذه الحوادث ذكر أهل المريض اسم النداهة ..

ما هى النداهة ؟!

النداهة هى إحدى الشخصيات المرعبة فى الأدب الشعبى ، وهى ـ كما يجمع من وصفوها ـ غولة تتنكر فى شكل أنثى حسناء .. تتجول ليلًا فى الحقول المظلمة وتنادى شابًا بعينه باسمه مرارًا ، ما إن يسمعها الفتى حتى يُهرع للحاق بها على الرغم من أهله ، فإذا مالاقى الفتاة وارتمى فى أحضانها تحولت لغول ضخم يلتهمه حتى العظام ..

توجد شواهد عدة على وجود كائن له هذه المواصفات ..

(محمد أمين) ـ فلاح عمره خمسون عامًا ـ شاهد فى حقله ليلًا امرأة طويلة القامة تسير فى تؤدة وتنادى : (زغبى) .. (زغبى) !.. وهو يقسم إنها كانت تشع بلون أخضر مخيف ، طبعًا لم يجرؤ على أن يذهب إليها بل عاد لبيته ليتدثر بأغطيته ويتلو الأدعية ..

(السيد الشرقاوى) ـ بقال القرية ـ فى أثناء عودته ليلًا جوار الترعة شاهد فتاة حسناء تمشى فوق مياه الترعة ولاتغرق ...

(أحمد عباس) ـ فلاح ـ سمع صوت نداء امرأة يردد : (إبراهيم) .. (إبراهيم) ! فهرع ليرى ما هناك ، وجد امرأة واقفة فى الحقل وحدها .. اتجه ليسألها عما تريده من (إبراهيم) .. استدارت له ببطء .. يقول إنه رأى أجمل وجه رآه فى حياته لكن .. حدقتيها ...، كانتا حمراوين بلون الدم ، وأن العالم كله دار به حين رأى المشهد .. ولم يدر إلا وشقيق زوجته يحمله إلى داره مغشيًا عليه من هول ما رأى ..

الطفل (صبحى محمود) ـ ٩ سنوات ـ شاهد امرأة تعبر حقل أبيه ليلًا فى ضوء القمر دون أن تترك ظلًا ..

قلت فى سخرية :

ـ إنه طفل قوى الملاحظة حقًا ..

لم يبد على الدكتور (عاصم) أنه لاحظ سخريتى ، وواصل القراءة :

ـ فى كل الحالات كان هناك نداءان .. الأول يؤدى بالمريض إلى حالة الذهول ، والثانى هو النهائى الذى يختفى بعده .. الفاصل بين النداءين هو أسبوع إلى أسبوعين ..

بعض أهالى القرية يقيدون (المندوه) لمنعه من الاختفاء ، وبعضهم يحرسون المريض حراسة محكمة .. لكن هناك لحظة ما من الإهمال أو النوم لابد أن تحدث ..، عندئذ ينتهى كل شىء ويفرّ (المندوه) ..

ـ ألم يحاول أحدهم مطاردة صاحبة الصوت ؟

ـ بالطبع لا ...لأن الأسطورة حية فى نفوسهم ، وهم واثقون أن من يعوق النداهة عن أداء عملها سيكون فريستها القادمة !

ورشف ثمالة الشاى من كوبه .. وقلب الصفحة :

ـ هناك عدة احتمالات لهذا الذى يحدث ..

الاحتمال الأول : هو أن النداهة كائن حقيقى ..

ـ احتمال غير مقبول ..

قال لى وهو يضع الكوب جانبًا ليغير وضع جلسته :

- أوافقك على هذا .. لكنه الاحتمال الوحيد بعد استبعاد الاحتمالات الأخرى .. وهى سخيفة كما سترى ..

الاحتمال الثانى : أنه وباء لانعرفه اجتاح القرية وأعراضه نفسية تمامًا مثل وباء الكورو(*) فى وسط إفريقيا ، وفى هذه الحالة فإن الأمر يستدعى إبلاغ من هم أقدر منا ، كمنظمة الصحة العالمية أو النمرو(**) ..

الاحتمال الثالث : هلوسة جماعية أصابت الكل .. وهو احتمال عسير وصعب التصديق ... لكنه أفضل من الاحتمال الرابع ..

الاحتمال الرابع : أن هناك عدة جرائم قتل نظيفة تمت باستغلال هذه الصورة الأسطورية وأن هناك قاتلا عبقريًا قام بزخرفة جرائمه بحيث لايتطرق الشك إلى أحد أن هناك نداهة حقيقية ..

قلت له متثائبًا :

(*) (الكورو) وباء فيروسى يصيب المخ ويسبب ضحكًا متواصلا حتى الموت ، وهو ناجم عن عادة إفريقية قديمة هى أكل مخ الموتى نيئا لاتقاء شرهم !

(**) (النمرو) NMRU وحدة الأبحاث الطبية التابعة للبحرية الأمريكية .

- لقد أجدت عرض الحقائق .. لكننى أعتقد أن الأربعة الاحتمالات كلها خيالية ومتناقضة ..

- الاحتمال الخامس : هو أن لكل حالة تفسيرًا على حدة .. فالحالة التى رأيتها اليوم كانت مصابة بالكلب ، ربما كانت الحالات الأخرى تعانى أشياء أخرى لم أعرفها أنا ..

نظرت لساعتى ... كانت التاسعة تمامًا .. وتذكرت أخى .. إن ما يجول بخاطرى الآن هو شىء واحد .. أن أذهب إليه لأقيده فى فراشه وأريح دماغى مما قد يكون وما قد يحدث ... إن عرض الطبيب لمعلوماته كان جيدًا منظمًا لكنه لم يقدم لى الكثير ... وتأملت الكتب التى وضعها جوار الفراش على الكرسى .. يالها من مجموعة غريبة .. كتاب (كفاحى) لأدولف (هتلر) .. وبعض كتب (نيتشه)(*) .. ومجموعة من روايات الخيال العلمى .. وبعض المجلدات الطبية أكثرها عن علم العقاقير .. وأربعة دواوين شعر ..

(*) (نيتشه) فيلسوف ألمانى اشتهر بدعوته للقوة ونبذ الضعفاء والمرضى من المجتمع ... وفلسفته قاسية غير إنسانية كانت هى أساس فكرة النازية التى تبناها (أدولف هتلر) ، وأشهر كتب نيتشه هو (هكذا تكلم زرادشت) .

نظرت له وقلت :

ـ شكرًا على عرضك المشوق وعلى استقبالك ، لابد لى أن أتصرف ..

ـ لكننا لم نتحدث بعد ..

ـ فيما بعد .. لقد كان يومى شاقًا ..

ـ نعم .. أعلم هذا وآسف له ..

ـ على كل حال ستجدنى هنا مرارًا ..

ـ وكم من الوقت ستقيم هنا ؟

ـ الواقع أننى لا أدرى ..

وهرشت رأسى فى تعب ، من الغريب أن هذا هو يومى الثالث فقط فى القرية .. كأنه دهر!.. قلت فى إنهاك :

ـ المفروض أن اجازتى من الجامعة هى أسبوعان .. إلا أننى سأظل هنا حتى أعرف كل شيء عن أخى....

وقبل أن أخبره بقصة أخى دق الباب فى إلحاح .. تركنى واتجه ليفتحه حاملًا المصباح ، وظللت وحدى فى الظلام أسمع محادثة هامسة بينه وبين ما يبدو أنه أحد عمال الوحدة وقد عاد من جولته فى الخارج .. بعد دقيقة عاد لى والمصباح يلقى ظلالًا مرعبة على وجهه .. وقال :

ـ ما هذا هذا (مصطفى) .. خفير الوحدة ، يعتذر عن اضطراره للنزول إلى القرية لأن أهلها نادوه للبحث عن شخص ما معهم ..

ـ شخص مختلف آخر ؟!

ـ بالفعل .. وأنت تعرفه جيدًا ..

أخى (رضا) !.. هل حدث هذا ؟.. ولكن الطبيب لا يعرف بعلاقته بى .. ولم يربط لحظة بين اسمى (رفعت إسماعيل) و (رضا إسماعيل) .. إذن من هو ذلك المفقود الذى أعرفه أنا جيدًا ..؟!

ـ هل تذكر الفتى المسعور الذى رأيته عصر اليوم ؟

ـ بالطبع ..

ـ حسن .. لقد لبىّ نداء النداهة منذ ساعة !!

* * *

٦ - أيـن هـى ؟!

حين عدت لدارنا فى ساعة متأخرة من الليل بدت أمى قلقة من منظرى المشوش المضطرب ، وشرعت أختى - بعينين حمراوين من أثر السهر - تسألنى عما هنالك .. حتى أنهما جعلتانى أقسم إن شيئا ما لم يصب أخى (رضا) .. أكدت لهما أننى منهك لا أكثر ..

وفى غرفتى المتواضعة بجدرانها المطلية بالجير الأخضر جلست أدخن وأتصفح كتبى التى لم يمسها أحد منذ أيام مراهقتى ..

يا للهزيمة المروعة التى تلقاها تشخيصى بعد أقل من أربع ساعات ! لقد فر الفتى ملبيًا نداء النداهة ، وبالطبع يقوم أهله الآن بتوجيه اللعنات إلى ذلك الحمار المغرور - الذى هو أنا - الذى زعم أن ابنهم مسعور وبالتالى جعلهم أقل حذرًا فى تعاملهم مع الفتى ... أنا لا يضايقنى أن يُقال إننى لا أفقه شيئا ، فلطالما قيل ذلك لكنى أكره أن تنهزم الحقائق العلمية على يدى وبهذه القسوة ..

حين نادى (كوخ).. العبقرى الألمانى بأن مرض الكوليرا تسببه باكتريا واوية تحداه أحد خصومه وشرب مزرعة كاملة من باكتريا الكوليرا أمام الشهود

- مزرعة تكفى لقتل مئة رجل - فلم يصب بشىء ولا حتى عسر هضم(*) !! ، وهكذا قُهر العلم لأسباب لا يمكن تفسيرها !

نفس الموقف يتكرر معى على نطاق أضيق ..

أنا أعرف أن التهاب المخ المصاحب لمرض الكلب يسبب جنونا مؤقتا .. وقد يفرّ المريض من ذويه ، لكن هذا يحتم أنهم سيجدونه ميتًا فى مكان ما بالقرية خلال أربع وعشرين ساعة .. فإذا لم يجدوه فمن يقنعهم أن ما حدث هو أمر لا دخل للنداهة فيه ؟!

يا للحيرة ..!..

* * *

فى الصباح ذهبت - محمر العينين مشوش الشعر - للاطمئنان على أخى ، فتحت لى (نجاة) الباب .. فما إن رأتنى حتى ابتسمت فى تشف .. وهتفت :

- سمعت أن ابن أبى عبد الرازق قد نادته النداهة أمس ..

قلت لها فى ضيق معاتبًا :

- الناس تقول صباح الخير أولاً ..

(*) قصة حقيقية .



ربطت معصمه فى عمود السرير بإشارب من الحرير .. وكان نائمًا مفتوح الفم ، وقد بدا منهكًا إلى أقصى حد ..

واصلت الكلام فى قسوة :

ـ يقولون إنهم أرادوا رأيك لكنك قلت إن حيوانًا مسعورًا عضه ..

ـ حتمًا ؟

ـ أى أنك لم تعرف ..

ـ هذا يدعو للفخر ..

ونظرت فى عينها .. وضغطت على أسنانى ، ثم تمتمت :

ـ (نجاة) ؟.. ماذا تريدين ؟.. ما الذى يحرّك فى هذه القصة إلى هذا الحدّ ؟!

هل أنت سعيدة إلى هذه الدرجة لفشل أخى زوجك ؟!

شدهت للفترة .. ولم تدر ما تقول ، من ثم خفضت رأسها ودعتنى للدخول ..

ـ لامؤاخذة ... كنت أتحدث من غلبى ...

ـ وحشت الأولاد الذين يلعبون من طريقى وأردفت :

ـ أنت لاتصدق .. ولهذا قلت ما أقول .. لامؤاخذة !

ودخلنا غرفة أخى ، وكان كل شىء كما هو سوى أنها فعلت الشىء الذى كنت أريد أن أفعله .. ربطت معصمه فى عمود السرير بإشارب من الحرير .. وكان نائمًا مفتوح الفم ، وقد بدا منهكًا إلى أقصى حد ..

قالت (نجاة) مفسرة :

ـ ظل طوال الليل ينهض ويتقلب ، لهذا اضطررت لتقييده .. ظلت الملعونة ثلاث ساعات تناديه أمس ..

ـ وهل (رضا) عاجز عن فك هذا القيد الحريرى ؟

ـ إنه ضعيف جدًا .. ألم تلحظ هذا ؟!.. ثم إن مخه مشوش ولا يستطيع حتى معرفة كيفية فك هذه العقدة ..

ـ والفتى إياه .. ابن أبى عبد الرازق .. لقد كان مقيدًا وهرب ..

ـ كلا .. لقد فكوا ذراعه على كلامك !، تركوا الغرفة خمس دقائق ليتفقوا على ما يفعلون .. حين عادوا للغرفة لم يجدوه ووجدوا النافذة مفتوحة ..

ثم دمعت عيناها .. وهمست فى غيظ :

ـ وأنت قلت إن حيوانًا مسعورًا عضه !

★ ★ ★

قال د. (عاصم) فى ثقة :

إن رأيك العلمى لا يقبل الشك ، إن الحمى المخية جعلته يهرب ، ولكن كيف تقنع هؤلاء الحمقى ؟!

كنا جالسين فى غرفته بالعيادة ، غرفة الفحص .. وكان زحام المرضى قد بدا يقل .. وكان وجهه فى نور الصباح أكثر بشاعة مما رأيته ليلًا .. كأنه بومة عجوز متشككة ترتدى المعطف الأبيض ..

قلت له فى شرود :

ـ عندى فكرة ما ..

ـ ما هى ؟

ـ أنت مهتم بهذه الأسطورة مثلى تمامًا ..

ـ طبعًا ..

طرقت المنضدة بمجمع قبضتى ، وصحت :

ـ نحتاج إلى الكثير من الصبر والتأنى ..

ـ لا أفهم ..

ـ قلت لى بالأمس إن هناك مريضًا لم يلبّ نداء النداهة بعد ..

ـ نعم .. واسمه (رضا إسماعيل) ..

لماذا لم أخبره أن المدعو (رضا إسماعيل) هو أخى ؟!.. لا أدرى .. إنه حافز خفى لا أدريه جعلنى أفعل هذا .. نفس الحافز الذى جعلنى لا آخذ حقائبى إلى بيت الدكتور (ريتشارد كامنجز) فى يوركشاير .. وهو نفس الحافز الذى جعلنى أقرر المبيت فى الحانة القذرة فى تلك القرية الرومانية البائسة ، وقد أقسمت ـ منذ زمن بعيد ـ أن ألبى دائمًا تلك الحوافز الغامضة لأنها تصيب دائمًا ..

قلت له :

ـ سنقوم بترتيب أنفسنا ... سنوزع نوبتجيات سهر نقوم فيها بمراقبة المنطقة المحيطة بداره ... وإذا ظهرت هذه النداهة المزعومة فسنلقى القبض عليها فورًا ..!

نظرت لى لحظة ليرى إن كنت جادًا .. ثم هرش صلعته مفكرًا .. وقال :

ـ إنها خطة مرهقة ..!

ـ بالفعل .. لكنى لا أتوقع أن يدوم انتظارنا أكثر من ليلتين ..

ـ وحالات الطوارئ الليلية ؟!

ـ يمكنك أن تخبر عاملا تثق به بمكانك بحيث يستدعيك إذا ما اقتضى الأمر ذلك ..

أخذ يفكر قليلًا .. وفى هذه اللحظة دخلت ممرضة حسناء الغرفة حاملة زجاجة صغيرة بها ترمومتر .. وما إن رأتنى حتى هزت رأسها محيية إياى والتفتت إلى الدكتور (عاصم) قائلة بصوت مبحوح :

ـ لقد انتهت آخر الكشوف يا (عاصم) ..

يا (عاصم) ؟.. وإزاء نظرة الدهشة التى ارتسمت على وجهى هش وجه الدكتور (عاصم) وأشار للفتاة قائلًا :

ـ معذرة .. لقد نسيت أن أقدمها لك .. (عواطف) زوجتى ..!

ثم عاتبها باسمًا :

ـ (عواطف) ..كم مرة قلت لك ألا تنادينى باسمى مجردًا أمام ثالث ..؟

ضحكت فى دلال وقالت بلهجة قروية جريئة وهى تتحسس رقبتها :

ـ إننى أعرف د. (رفعت) جيدًا .. إنه ابن القرية وليس غريبًا ..

هززت رأسى محييًا إياها بما معناه (تشرفنا) .. ثم سألتها :

ـ هل تعرفين أسرتى ؟!

ـ ليس تمامًا .. إننى أصلًا من فاقوس ..

شىء غريب !.. لم يجل بخاطرى أبدًا أن الرجل متزوج ... إن منظر غرفته التى شهدتها بالأمس ومنوال حياته يوحى بالعزوبة .. وأين كانت زوجته ليلة أمس حين كنت عنده ؟!.. ثم إن لدىّ بعض التحفظات على زيجة كهذه قد لا تمنح أقصى درجة من التكافؤ الثقافى والاجتماعى .. لكن مالى أنا وهذا ؟.. إنهما سعيدان .. وأنا أفهم ما تفعله الوحدة فى النفوس ... على الأقل هو قد أكمل وجوده

الفسيولوجى ، أما أنا فما زلت طفلاً يلهو جوار بركة الحياة قاذفًا فيها حجرًا من وقت لآخر لكنه أبدًا لا يجد الشجاعة ليسبح فيها ..!

قال د. (عاصم) وقد خمّن نصف ما أفكر فيه :

ـ إنها بنت حلال .. تفهمنى تمامًا ولا أرضى عنها بديلاً ..

ثم قال وقد خمّن النصف الآخر :

ـ أمس كانت قد نزلت القرية لإجراء ولادة عاجلة ، إنهم هنا يفضلون أن تقوم قابلة أو ممرضة بذلك ..

ـ لهذا لم أرها ليلة البارحة ..

ـ ولهذا أغلقت سكن الممرضة تمامًا لأننا نعيش سويًا فى سكن الطبيب .. لقد صارت هذه الغرفة الضيقة بيتنا الفاخر ..

مددت يدى أعبث بالترمومتر الذى فى الزجاجة .. ثم قلت :

ـ إذن متى يبدأ مشروعنا الصغير ..؟

ـ الليلة إذا أردت !

* * *

ـ إنه الليل ...

مرة أخرى يعود هذا الكيان الغامض الأسود المليء بالأسرار ... فى غرفتى أرتدى ثيابى استعدادًا للحاق بالدكتور (عاصم) عند الوحدة الصحية ، ارتديت حذاءً خفيفًا ووضعت فى جيبى مصباحًا كهربيًا ، وتأكدت أن معى من السجائر ما يكفى لسهرة طويلة قاسية ..

ثم إننى فعلت الشيء الذى لم أكن أعتقد أننى سأفعله أبدًا .. من بطانة حقيبة الكشف أخرجت مسدسى الصغير الذى قمت بترخيصه بعد مغامرتى مع الكونت (دراكيولا) ... وتأكدت من حشوه ثم دسسته فى جيبى ..

أما الخطوة الثانية ـ وهى الأهم ـ فكانت أننى أخذت المصحف الصغير الذى أعطتنى إياه أمى ، ووضعته فى جيب البذلة الداخلى ..

لقد استعددت لكل شيء ..

* * *

٧ ـ المقـــابلـة ..

عند الوحدة الصحية الجاثمة كشبح أسود فى الظلام قابلته ... كان واقفًا وقد ارتدى (بول أوفر) أسود عالى الرقبة ، لا أحب كثيرًا قضاء الليل مع هذا الخفاش الأصلع لكن لا مفر لى .. إن زوجين من الأعين هما ـ حتمًا ـ أفضل من زوج واحد حتى إذا كان كلانا ينظر للعالم من خلف زجاج نظارة سميكة ..

ـ هأنذا ..!

صحت به ، فوثب فى مكانه هلعًـــا وشرع يبسمل ويحوقل ... يالك من أبله ! إننا لم نبدأ بعد ... وما إن تعرف علىّ حتى وجه ضوء البطارية إلى وجهى وشرع يضحك فى هستيريا مرددًا ..

ـ لقد ظننتك هى ..!

ـ هذا هو ما نريده بالفعل ..

ـ لكم أنا سعيد أنك لست هى ..!

ـ د. (عاصم) ..

ـ نعم أيها الزميل ؟..

ـ إن كونى لست هى لا يعطيك الحق فى إصابتى بالعمى بهذا الكشاف !

استدرك معتذرًا ، وأطفأ الكشاف وقد بدا عليه الخجل ، وبدأنا فى صمت السير على الطريق الترابى المؤدى إلى دار أخى .. كان قد وصفه لى بدقة صباح اليوم وتظاهرت بأننى أجهله ، وبعد دقائق بدأ صوت لهاثنا يتعالى فلم يكن واحد منا يتمتع بلياقة طيبة ..

لا أحب كثيرًا هذا الصمت المريب ..

ومن بعيد لاحت لنا دار أخى ... كئيبة حزينة مسربلة باللون الأسود .. نظرت له وهمست مشيرًا إلى الجهة الغربية :

ـ فلتتوغل أنت فى هذه المزروعات وانتظر هناك ..

ـ وأنت ..؟

ـ إذا حدث ما يريب عليك أن تصدر صوت البومة .. وإذا كان الخطر داهمًا فلا عليك .. اصرخ ..

ـ وأنت ؟

ـ سأتوغل أنا فى حقل الذرة القبلى ..!!

★ ★ ★

الحقل القبلى هو المكان الذى سمعت منه ذلك الصوت ينادى أخى .. توغلت بين أعواد الذرة التى تتجاوز بارتفاعها قامتى .. صوت خرفشة الأوراق الجافة وأشياء قاسية كنصل السكين تخدش وجهى ، سيكون من الصعب رؤية أى شىء من هذا المكان .. حتى ولو كان هذا الشىء على بعد سنتيمترات من وجهى ..

ظللت أتوغل وأتوغل حتى وصلت لمساحة خالية فى الحقل فتوقفت وقد تسارعت دقات قلبى من الانفعال .. رفعت رأسى للسماء فرأيت النجوم واضحة مميزة كما أراها من قبل .. ومن بعيد استطعت أن أرى بيت أخى وحيدًا بائسًا مسربلًا بالظلام ..

لم يكن هناك قمر .. وأنا أفضل ذلك ، لأن الظلام الدامس لا يخيف .. إن ما يثير الهلع هو الأضواء الخافتة الظلال لأنها تثير الخيال ، تذكرت قصة الغرفة الحمراء لـ (هربرت جورج ويلز) .. حين كان على البطل أن يقضى ليلة سوداء فى غرفة مسكونة بالأشباح ، وقد أضاء شموعًا كثيرة لتؤنس وحدته لكنها زادت رعبه حتى كادت تؤدى به للجنون حين كان عليه أن يواجه الظلال التى يحدثها انطفاء شمعة من حين لآخر !

نعم .. أنا أفضل الظلام الدامس بلا شك .. الظلام الدامس المتجانس المسطح .. إن إيقاد شمعة أو مصباح خافت أو ضوء القمر الشاحب لكفيل بأن يجعلنى أموت هلعًا ..

ومضت الدقائق ..

افترشت الأرض وجلست القرفصاء .. والآن هو ذا عيبى الأساسى الذى لم أتخلص منه أبدًا والذى لم يخطر لى ببال .. الملل ... تبًا لهذه النداهة الكسول ..! ما ذنبى أنا كى أقضى ليلتى بانتظار اللحظة التى ترأف فيها تلك الملعونة بحالى وتأتى من عالمها الجهنمى لترعبنى ؟!.. إذا لم تفعل ذلك الآن فلاداعى لتفعله أبدًا ..

★ ★ ★

مضت ساعتان ..

المشكلة فى هذه المسوخ المرعبة أنها لا تأتى أبدًا حين تريدها ..

والآن يغفو (رضا) فى فراشه غير عابئ بشىء ، وتنام (نجاة) جواره تفكر فى مصيرها من بعد رحيله ؛ وكل القرية نائمة لا تدرى شيئًا عن المخبولين اللذين قررا قضاء الليل فى الحقول دون مبرر ..

أشعلت سيجارة وطفقت أدندن ..

لا أدرى لماذا تذكرت هذا اللحن الحزين فى هذه اللحظة بالذات :

فين الولد يامّه ؟ قالت نسى أهله ..

كان اللحن مناسبًا للموقف لكنه خرج من فمى غليظًا أجش كأنه نذير ، ولقد أثار رجفة فى عروقى أنا نفسى .. ما الذى جعلنى أتذكره ؟!

وهنا ..

انتابنى شعور غريب بأننى لست وحدى ، فى مجال بصرى لمحت شيئًا ما .. أدرت وجهى فى بطء تجاه هذا الشىء .. فلمحت ما يشبه فتاة طويلة مسربلة بثوب طويل أسود تسير فى تؤدة على بعد خمسة أمتار منى فى خفة كأنها (تسرى) ولا تمشى .. لايوجد أى نوع من الانبعاج تحت ثوبها يوحى بحركة القدمين ..

ساب البلد لمـــا   الغولـــة نادت له

لما تدر وجهها لى كأنها لاترانى أساسًا ..، وفى هذا الظلام لم أكن لأراها حتى لو نظرت لى ..، أحسست بعمودى الفقرى يتجمد وقلبى يكاد يثب فى حلقى ..، إنها تنظر .. إلى دار (رضا) ..

فين الولد يا ولاد ؟   قالوا الولد مسحور

أما ما جعلنى أدرك أن الأمر كله ليس وهمًا فهو هالة الضوء الأخضر العجيبة المحيطة بها .. كأنها تشع هذا الضوء من الداخل .. من تحت ثوبها ..، إن ما أراه الآن لهو شىء غامض بكل المقاييس .. شىء لا أدرى كنهه لكننى لا أجرؤ على ترك المكان قبل فهم ما يحدث ..

سافر وراهـا بلاد   وادى السنين بتدور

والآن توقفت الفتاة وقامتها منتصبة وصدرها يعلو ويهبط .. ثم رفعت عقيرتها بالنداء وهى تنظر لأعلى كذئب يعوى أمام قرص القمر ..

ـ (رضا ااااه) !.. (رضا ااااه) !

إنه نفس الصوت الطويل ـ كالنحيب ـ المدوى كأنه قادم من أعماق الجحيم ..، نفس المقاطع الممطوطة .. نفس الحشرجة التى سمعتها فى تلك الليلة عندما عدت من القاهرة ..

ـ (رضا ااااه) !.. (رضا ااااه) ..!

والآن حان وقت انتهاء هذه المهزلة ..، نهضت من مكانى وفى هدوء وحذر اتجهت إليها وكانت تدير ظهرها لى .. ضوءها الأخضر الغامض يغلف معالم جسدها ويسقط على ثيابى ..، حين صرت خلفها تمامًا تنحنحت لأبدأ الكلام .. فقد انحشرت الحروف فى حلقى ..

فين الولد يامه ؟   قالت نسى أهلـــه

قلت وأنا أرتجف :

ـ ماذا تفعلين هنا أيتها الفتـ....

وهنا التفتت لى ..

ساب البلد لمـــا   الغولـــة نادت له

من ذا الذى قال إن النداهة رائعة الجمال ؟!.. أنا لم أر



وشرعت أجرى وأتعثر .. وأنهض .. ثم أجرى .. أعواد الذرة تلطم وجهى ..

ولم أتخيل قط وجهًا مريعًا كهذا الوجه ... وجه شاحب كالموت .. عينان عميقتان حدقتاهما حمراوان بلون الدم ... شفتان مشققتان .. لا أنكر أن هناك جمالاً ما من نوع خاص كجمال الساحرات الشريرات كان موجودًا لكنه جمال قاس شنيع .. خصلات شعرها سوداء فاحمة مصففة بعناية ، وعنقها طويل شامخ و .... شامة كبيرة زرقاء على الخد الأيسر ..

لم يتسع الوقت لأعصابى كى تستوعب كل شىء ... لأنى صرخت وصرخت كما لم أصرخ من قبل ... نسيت كل شىء عن المسدس الذى فى جيبى .. لم أكن أريد سوى الخروج من هذا الموقف إلى مكان لا أدرى فيه هذا الوجه ..

فين الولد يا ولاد ؟ قالوا الولد مسحور

وشرعت أجرى وأتعثر .. وأنهض .. ثم أجرى .. أعواد الذرة تلطم وجهى ، وقلبى يخفق ... وتفكيرى كله قد تبدد إلا من الأغنية المشئومة وثعبانين يلتهم كل منهما ذيل الآخر لا أدرى كيف تسربا إلى عقلى الباطن ..

ومن بعيد عاد صوتها يتردد فى إصرار :

ـ (رضا اااااه) !.. (رضا اااااه) !

★ ★ ★

وفى الظلام اصطدمت بجسد بشرى ، فأجفلت وشرعت أوجه لكمات خرقاء إلى ما ظننت أنه مقتله .. فسمعت صوتًا مألوفًا يبسمل ويهتف بى :

- دكتور (رفعت) !.. هذا أنا .. (عاصم) !

(عاصم) من ؟!.. الآن تذكرت .. دكتور (عاصم) الذى بدأت معه المغامرة .. أنار الكشاف وشرع يهدئ من روعى على حين أخذت أرتجف وأحكى له ما حدث فى كلمات سريعة ..

- إذن هى هناك ؟

- بالطبع يا أحمق ..

- إذن هيا بنا هذه آخر فرصة لنا ..

وشرعنا نجرى إلى المكان الذى رأيتها فيه ... وهناك - وعلى ضوء بطاريتنا - لم يكن شىء سوى السكون المريع وصوت ضفدع ينق مغازلًا أنثاه ..

أين ذهبت تلك الفتاة ؟!..

- هل أنت واثق مما رأيت ؟!

- بالطبع ..

- ولماذا لم تقبض عليها ؟!

احمر وجهى - وهو ما لم يره فى الظلام - وقلت بمزيج من الخجل والحنق :

- ليتك كنت هناك مكانى .. لم تكن هناك فرصة لأى شىء ..

- إلى هذا الحد كان المشهد مرعبًا ..؟

- مريعًا ..

- وأين تظنها ذهبت ؟!

- إلى المكان الذى منه جاءت بالطبع ..

تفكر حينًا ثم تثاءب ، وقال :

- على كل حال فإن من رابع المستحيلات أن تجد أحدًا بين عيدان الذرة النامية ، يبدو أن حفل الليلة قد انتهى .. فلنعد إلى الوحدة ونتناقش ..

أنت فى حاجة لكوب من الشاى ..

- نعم ولاريب ..

* * *

- والآن دعنا نسترجع ما حدث ..

كانت (عواطف) زوجته تعد لنا الشاى على موقد الكيروسين ، فى حين جلسنا نرتجف - أنا و د (عاصم) - على الفراش ... لم أصدق لحظة أننى منذ عشر دقائق واجهت النداهة .. النداهة بعينها ..

شرعت أعيد حكاية القصة ، فى حين شرعت (عواطف) تتصعب وتمصمص شفتيها حتى إذا وصلت لجزء المواجهة صرخت بصوتها المبحوح

ـ يا لهوى !.. كفاك هذا فقد اقشعر جلدى !

ضحك د. (عاصم) فى طرب ... إن الرجال يحبون أن تفزع النساء .. والنساء الذكيات فقط يعرفن كيف يستغللن هذا ... كأنى بخوف النساء العتيد من الفئران مجرد تملق لغرور الرجل ..

قلت فى تواضع وأنا أرشف كوب الشاى :

ـ أنت اقشعررت من مجرد كلمات ... أما أنا فقد عشت الموقف وجهًا لوجه وسيظل يطاردنى حتى أموت ..

قال د. (عاصم) فى اهتمام :

ـ صفها لى ..

هرشت ذقنى فى تردد ، إننى أعرف شكلها تمامًا لكنى لا أستطيع وصفه ... ثم خطرت لى فكرة فتناولت ورقة وقلمًا وشرعت أخط شيئًا ما ..

ـ آه !.. سترسمها ؟

ـ بالطبع .. فأنا رسام لابأس به ..

وعلى الورق بدأ الوجه يُولد .. العينان الشاخصتان .. الشفتان المزرقتان خصلات الشعر الناعم الأسود متسدلة

على الجبين ، ثم العنق الطويل الأبيض ... صورة لابأس بها ، لكنها لاتشبهها كثيرًا .. فقط مفيدة لمن لم ير نداهة من قبل ..

مددت يدى بالورقة إلى (عاصم) ، فتناولها يتأملها ومطت (عواطف) عنقها الطويل فى فضول لترى ما هنالك ، أطال (عاصم) النظر إلى الصورة ثم أعادها لى واجمًا ... أعدت تأمل الصورة .. هناك خطأ ما ارتكبته .. فقد نسيت أن أظلل العينين لتكونا حمراوين كعينى النداهة ، ثم إننى لم أرسم الشامة الزرقاء على الخد الأيسر .. لهذا بدت الصورة أكثر بشرية مما كانت عليه تلك الشيطانة حين رأيتها ... مجرد فتاة جميلة أخرى ..

ثنيت الورقة ووضعتها فى حافظتى ؛ ونهضت للانصراف .. فلم يحاول أحدهما استبقائى ... قال (عاصم) فى شرود :

ـ وبعد .. هل سنواصل ما بدأناه باكرًا ؟

ـ طبعًا .. إننا لم نصل لشىء ... والساعة الآن الحادية عشرة مساءً ..

ـ لو كنت مكانك لأخذت الحذر ..

ـ ولم ؟

نظر لى نظرة حنونا غريبة من خلف نظارته السميكة ..

وهمس :

ـ لقد عطلت مشروعها لهذه الليلة ، والنداهة لا تترك أبدًا من يعترض سبيلها ! والآن فلتشرب كوبًا آخر من الشاى قبل أن تنصرف ..!

* * *

٨ ـ النـــداء ..

فى الواحدة صباحًا عدت لدارى فخلعت ثيابى وارتميت على فراشى منهكًا .. ما أطوله من يوم !!.. كان الصداع يقتلنى والدوار يعصف بى .. وثمة انفصال كامل عن الوجود فى كل كيانى ... ولكن .. الواحدة صباحًا ..؟!.. لقد ودعت د. (عاصم) منذ ساعتين .. فهل استغرقت ساعتين فى الوصول لدارى ؟!.. لا أذكر شيئًا ولا يهمنى أن أذكر .. كل ما أريده الآن هو أن أنام ..!

ولم أدر متى غلبنى النعاس ..

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى استيقظت وفمى جاف كالقش وفى ذهنى صورة واحدة ملحة .. ثعبانان يلتهم كل منها ذيل الآخر .. أين لمحتها ؟

ومتى ؟.. وما معناها ..؟!..

ولم يستمر تساؤلى لأنى غفوت ثانية ..

ـ ....

* * *

على الطبلية جلست ألتهم البيض والفطير الذى أعدته لى أختى (رئيفة) .. وكنت شارد الذهن إلى درجة أثارت قلقها .. شرعت تحدثنى فى مواضيع عديدة بدت لى بعيدة جدًا ومبتذلة فأغلقت أذنى وشرعت أهمهم بنغمات مختلفة توحى بالمتابعة .. كأنى أوافقها فى الرأى :

- ....
- همم م ..!
- ....
- هههم م !
- ....؟!
- هم م ..

وهنا لمحتها تنظر لى فى ضيق ودهشة وتقول :

- إننى أسألك !

لقد أجبتها على سؤالها بهمهمة توحى بأننى أتابعها ..!

وهكذا افتضح شرودى بشكل مخجل لابد أنه أثار حفيظتها ... قلت فى ارتباك :

- لامؤاخذة !.. ماذا كنت تقولين ؟!
- أنت لاتسمعنى ألبتة .. أقول لك ماذا ستفعل مع (رضا) ؟!

- وهل هناك جديد ؟!
- نعم .. أرسلت لنا امرأته صباح اليوم تقول إنه ..
- هرب ؟!
- لا .. ليس بعد ... نادته النداهة أمس فمزق قيوده وكاد يهرب ، حتى أنها اضطرت للاستعانة بالجيران كى يمنعوه .. لم تكن تريد أن يعرفوا ..

لم تكن تريد أن يعرفوا ؟.. هذا غريب ..

- وهل هى لم تخبر أحدا بالموضوع حتى الآن ؟
- بالطبع .. أنت تعرف امرأة أخيك .. إنها لاتحب الشماتة .. إنها تخفى السر وتزعم للجيران وأصدقائه أنه مريض ..
- إذن أنا أول من فحصه ؟!
- طبعًا .. وكنت أقول إن ..

إن شيئًا فى هذا الكلام لشديد الأهمية ... إنه يعنى .. ولكن يا لتشوش ذهنى !

لا أستطيع أن استخلص شيئًا من هذا الكلام لكنه يوحى لى بفكرة ما هامة جدًا .. وقد نسيت ما هى !..

شفتا أختى لم تزالا تتحركان بكلمات كثيرة .. ألن تكفّ عن الكلام أبدًا ؟!.. أنا لا أفهم حرفًا مما تقولين فضلًا عن سماعه أصلًا ... والآن من المحتم أن أزور (رضا) لأطمئن عليه وتلك المرأة الكتوم قوية الشخصية زوجته ..

أنهيت إفطارى وشربت الشاى ، ثم إننى غادرت الدار متجهًا إلى بيت (رضا) تعمدت أن أعبر حقل الذرة الذى حدثت فيه أحداث الأمس ... وفى المكان الذى وقفت فيه النداهة توقفت وشرعت أتفحص التراب .. كانت هناك آثار أقدام لحذائى الكاوتشوك الذى ارتديته ليلاً .. وعلى بعد أمتار كانت هناك آثار أخرى غريبة .. حفر دقيقة عميقة فى التراب لايمكن أن يرسمها حذاء .. بل هى - إذا أردنا الدقة - أقرب للآثار التى ترسمها أقدام القط حين يزحف فى حذر نحو عصفور !..

اتجهت نحو دار (رضا) وقرعت الباب ففتحت لى (نجاة) :

- أنت لم تر ما حدث أمس وأنت نائم فى الصل ..

هكذا صرخت بمجرد أن رأتنى فأوقفتها بحزم رافعًا يدى :

- أعرفه .. ولم أكن نائمًا فى الصل ... سامحك الله ..

- إذن أين كنت ؟!

- كنت واقفًا فى البرد والعراء أنتظر نداهتك .. ورأيتها .. وسمعتها تناديه ..

- وماذا فعلت ؟

- لا شىء .. ذهبت أطلب نجدة وحين عدت لم أجدها ..

- يا خيبتك !!

إن هذه المرأة ستحطم أعصابى .. لماذا أتحمل وقاحتها وسخفها دون أن أحطم رأسها ؟!

للأسف أننى مضطر لهذا لأنها هى الضريبة التى أدفعها وسأظل أدفعها كلما أردت العبور إلى عالم أخى .. إنها سيدة الدار .. ولامفر من ذلك !

تأملت وجهها .. خصلات شعرها الأسود الناعم .. عينيها المحملقتين .. إن هذه الملامح تذكرنى بشىء ما ... ثم إن شفتيها مشققتان بصورة غير عادية ، وكانت تكشف عن عنق طويل أبيض ... لا أريد أن أكون متحاملاً لكن هذه المرأة تشبه النداهة إلى حد لابأس به ..!.. ثم لاتنس - وهذا هو الأهم - تلك الشامة الزرقاء الغريبة على خدها الأيسر ... إنها تشبه النداهة لكنها ليست هى .. لا يمكن أن تكون هى ..!

- فيم أنت شارد هكذا ؟!

ابتلعت ريقى .. قد تكون مصادفة وقد يكون إيحاء تركته فى نفسى أحداث البارحة ، وقد يكون انعكاسًا لكراهيتى لها لكننى لا أتخيل اللحظة المبرر ولا الحافز الذى يجعلها تترك زوجها وتخرج ليلاً لتنادى عليه من خارج البيت ..! سيكون تكرارًا سخيفًا أن تكون كل فتاة أقابلها ذات شخصية شريرة أخرى .. (إيكاترينا) تتنكر فى صورة مذءوب فى رومانيا و (نجاة) تتنكر فى صورة نداهة فى مصر ..!

كلا .. لن تؤثر هذه الملاحظة العابرة على تفكيرى ...
فقط لأحتفظ فى ذاكرتى بهذه النقطة ولا أنساها أبدًا :
(نجاة) تشبه النداهة إلى حد ما ... لربما أفادتنى هذه
المعلومة يومًا ما ... ودعتها وانصرفت متجهًا لدارى ..
على أننى توجهت إلى الوحدة الصحية لأرى شيئًا ما فى
مكتب المواليد ثم عدت لدارى بعدها دون أن أقابل
(عاصم) ..

* * *

بدأ المرضى يتوافدون إلى دارنا .. فعدت أمارس عملى
فى الغرفة الجانبية إياها ، وكنت شارد الذهن مما أثر على
سلامة تشخيصى ، ولأكثر من مرة ترتد القلم فى يدى
محاولاً تذكر اسم دواء ما .. ونسيت كثيرًا من الوجوه التى
رأيتها أمس .. الخلاصة أن أدائى كان مثيرًا للشفقة إلى
حد لا يُوصف ..

وحين جاء العصر صعدت لغرفتى وتناولت لقمة أعدتها
لى أمى للغداء .. ثم تمددت فى فراشى لأستريح استعدادًا
للسهرة القاسية التى تنتظرنى هذه الليلة .. وسرعان
ما غلبنى النعاس ، فنمت نومًا هادئًا لا أحلام فيه ..

* * *

صحوت فى الظلام الدامس .. ما الوقت الآن ؟!..
نظرت لساعتى الفوسفورية فوجدت عقاربها تشير
للعاشرة مساءً .. لقد خاننى التعب وتأخرت ساعتين عن
موعدى فى الوحدة مع د. (عاصم) ... يجب أن أرتدى
ثيابى وأهرع إليه قبل أن يجنّ ..

ارتديت (عدة النداهة) التى وصفتها لك .. المسدس
والمصحف والسجائر والحذاء الخفيف .. ثم اتجهت للباب
كى أخرج ، وهنا سمعت صوتًا غريبًا .. صوتًا قادمًا من
ناحية الساقية المجاورة لبيتنا .. صوتًا طويلاً ممطوطًا
كالنحيب .. صوتًا أعرفه جيدًا يقول :

ـ (رفعااااات) !.. (رفعااااات) !

إنها تنادينى أنا .. أنا بالذات !.. لقد جاءت لحظتى ،
والآن لن أبحث عنها ولن يكون هناك المزيد من الانتظار
الليلى المملّ ... كل ما علىّ هو أن أخرج من البيت ولسوف
تكون هناك بانتظارى ..

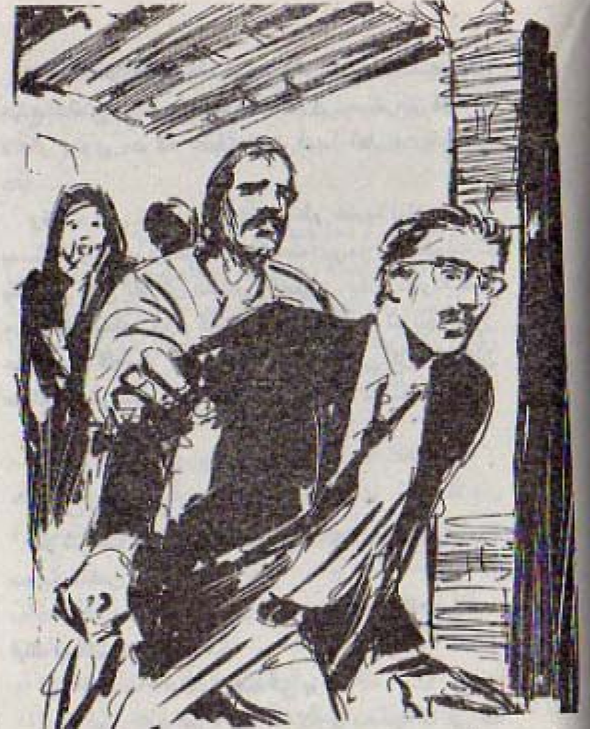
ـ (رفعااااات) !

وهنا انفتح الباب ولمحت أمى وأختى و(طلعت) زوج
(رئيفة) يدخلون الحجرة وثمة شمعة مضاءة فى يد أمى ..
ونظرة هلع فى عينيها الذابلتين :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم !.. إنها تناديك يا بنى ؟!..

ثم لمحت استعدادى للخروج ... فصاحت :

ـ لا .. لن تذهب !..



أمسك (طلعت) ذراعي بيده القوية ـ كالمنجلة ـ وقال بخشونة :
ـ (رفعت) .. لا أريد أن أؤذيك !..

قلت في غلظة على الرغم مني :
ـ اسمعي يا أمي .. لا دخل لأحد بهذا .. إنها مشكلتي وسأحلها بنفسي ..
ضربت على صدرها في لوعة :
ـ الحقوني أيها الناس !.. هل أفقد الولد وأخاه ؟!
بينما الصوت يتردد في إصرار وبرود :
ـ (رفعاااات) !
اتجهت للباب .. إن شيئًا ما في هذا النداء لا يُقاوم أبدًا .. ثم مشهد وجهها .. لابد لي أن أرى هذا الوجه مرة أخرى ... كم هو فاتن !.. كم هو غريب !.. كم هو شيق !.. لن يستطيع هؤلاء منعي بدعوى الحنان الأسري ..
أمسك (طلعت) ذراعي بيده القوية ـ كالمنجلة ـ وقال بخشونة :
ـ (رفعت) .. لا أريد أن أؤذيك ..!
قلت في حنق محاولًا انتزاع ذراعي وقد سقطت نظارتي على الأرض :
ـ لا شأن لك يا (طلعت) بهذا .. دعني ..
فازدادت قبضته ثباتًا .. وهنا دوى الصوت مرة أخرى :
ـ (رفعاااات) !

كلا ..!.. لن أضيع هذه الفرصة !.. حاولت التملص فى هياج فكانت فرصة رائعة لـ (طلعت) كى يستعرض قواه .. لاأذكر سوى معركة عنيفة كنت فيها الطرف الواهى جدًا ..

وكانت أمى تولول ، وأختى تلطم خديها بينما طفلها يمسك ذيل ثوبها وينشج ... (طلعت) يوجه لى اللكمات ثم يلقى بى على الفراش الخشبى العتيق .. أختى تناوله حبلًا من الليف يعقده حول كاحلى وهو يلهث .. ثم يلفه حول معصمى ، قاومت .. صرخت .. تسلّخ لحمى لكن القيد كان محكمًا .. ثم استسلمت منهكًا ... الصوت لم ينفك ينادى :

ـ (رفعاااات) !

أطلقت أختى سبّة .. وهتفت :

ـ ألن تخرسى يا بنت الـ...... ؟!

ثم شرعت تقول وهى تبكى وقد اكتسب كلامها نغمة محببة للنفس :

ـ أولًا (رضا) .. ثم هوذا أخى (رفعت) زينة الرجال .. ليتك لم تأت من مصر ..

ليتك لم تأت ، ليتك تركتنا فى بؤسنا ..

لماذا تبكى هذه المرة ؟!.. أنا لاأرى مصيبة ما فى هذا الذى يحدث .. كل ما هناك أن هذا القيد يثير حفيظتى وأننى

يجب أن أتخلص منه بأسرع ما يمكن .. هناك تقف حبيبتى الرقيقة فى ثوبها الأسود تنتظرنى وتناديني .. فعلام لاألبى نداءها ؟!

★ ★ ★

لم أدر بشىء مما حدث فى الأيام التالية ..

هلوسة متواصلة مضطربة تداخل فيها د. (ريتشارد) مع (استيان) والمذءوب مع مومياء (دراكيولا) ومشهد وفاة (إيكاترينا) و د. (عاصم) ووجه النداهة ووجه يهوذا والثعبانين اللذين يلتهم كل منهما ذيل الآخر ..

فيما بعد حكت لى (رئيفة) كل شىء ..

كنت ذاهلًا عن العالم أرمقه بعينين مفتوحتين لاتريان ، ولم أكن آكل لهذا كانوا يطعموننى قسرًا كالبط ... وقد أحرقت أمى أطنانًا من البخور جوار فراشى وقرأت سورة (يس) مئات المرات ..

أما (رئيفة) فقد أحضرت مشعوذًا ـ نصابًا كالعادة ـ كى يحاول فك اللعنة التى تكبلنى .. وبالطبع أحرق مزيدًا من البخور وردد عشرات الرقى وطلبت مئات الطلبات ثم انصرف زاعمًا أن هناك جنيًـا حانقًا علىّ لأننى لم أجلب له ما أراد من هدايا ..

وكان (طلعت) أكثر مادية فى تفكيره .. إذ ذهب للقرية وأحضر د . (عاصم) طبيب الوحدة كى يرانى .. وقد أبدى هذا الأخير أسفه ولوعته ، وقال إنه خمن أن هذا حدث حين تأخرت عن موعدى معه ، وحكى لهم قصة لقائى مع النداهة .. ثم إنه أعطانى حقنة مهدئة وعرض خدماته فى أى وقت ونصحهم بفك القيود من حين لآخر والسماح لى بالتقلب فى الفراش حتى لا أصاب بقرحة فراش ... وأخذ جنيهًا ثمن الكشف برغم أن هذا ممنوع حسب قوانين النقابة ..

ياله من نصاب !..

وفى كل ليلة ـ حكت أختى ـ كانت النداهة تنادينى من جوار الساقية ... فكنت أتململ وأتقلب وأحاول النهوض لكن القيود كانت أقوى منى ..

وفى ذات مرة أصر (طلعت) على الخروج ليرى هذه الشيطانة لكن أمى وأختى توسلتا إليه أن يبقى .. فهما ليستا على استعداد لفقد آخر رجل فى الأسرة .. وقد اضطرت أختى لأن تلثم يده كى يكبح فضوله القاتل ، فرضخ لرغبتها ..

كم من الوقت استمر بى هذا الحال ؟!..

أسبوعين ..!

وكيف انتهى ؟!.. إن لذلك قصة صغيرة سأحكيها لكم ، ولكن لاتتعجلونى ..

* * *

وصل خطاب باسمى ، تسلمه (طلعت) زوج أختى ... ولم ير فائدة ما من إطلاعى عليه لأننى قد انفصلت عن العالم تمامًا .. لهذا نسيه تمامًا فى جيب جلبابه .. ثم إنه فى إحدى الليالى فكر فى أن يتلوه بجانب فراشى لعل شيئًا فيه يثير انتباهى أو يكون أمرًا ذا بال يمكنه هو التصرف فيه ..

وعلى ضوء مصباح الجاز شرع يقرأ .. كان الخطاب من تلميذى د . (علاء عبد الصمد) يتحدث فيه عن عينة الدم التى أخذها ليحللها فى معمله بالقاهرة :

ـ عزيزى د . (رفعت) :

لم أستطع الحضور بنفسى كما أننى لم أستطع الاتصال تليفونيًا لأن القرية لايوجد بها تليفون ، لهذا أرسل هذا الخطاب وفى تقديرى أنه لايستغرق سوى ثلاثة أيام وبالتالى لن يسبب التأخير مشكلة ..

لقد قمت بإجراء التحاليل التى طلبتها .. وكما توقعت أنت لم أجد أى دليل على مرض السكر أو الكلى أو الفشل الكبدى أو تغير حموضة الدم ... كما أن نسب الكهارل(*) لابأس بها ... ومزارع البكتريا سلبية كلها ..

(*) الكهارل أو الالكتروليتات هى أيونات الدم الموجبة والسالبة ..

باختصار .. لا شيء على الإطلاق ..

ثم قمت بإجراء تحليل كروماتوجرافى فى كلية الصيدلة بحثًا عن سموم معينة وبعد بحث مدقق مرهق وجدنا فى العينة نسبة ضئيلة جدًا ولكنها محسوسة من مادة الباربيتورات ..

كان (طلعت) يقرأ بلغته المضعضعة الواهية ، وقد عانى الأمرين فى نطق كلمات مثل (كهارل) .. (كروماتوجرافى) ... (باربيتيورات) لكن الكلمة الأخيرة وصلتنى كاملة سليمة .. واستقرت فى وعيى لتحدث هزة كاسحة .. ومن ثم رددتها خلفه – هكذا قال – وكانت أول لفظة أقولها منذ أسبوعين مما أحدث له هزة فرح عارمة .. وشرع يكبر والدموع تغطى عينيه :

– وا (رفعت) !.. لقد نطقت أيها الرجل الطيب !.. نطقت !

هأنذا .. حىّ أرزق .. لا أدرى ما حدث لى ولا يعنينى أن أعرف .. فقط أريد هذا الخطاب حالاً .. يجب أن أعرف ما به ... ولكن .. إننى مقيد للفراش كالذبيحة .. من فعل هذا ؟.. (طلعت) ؟!.. ولماذا ؟!.. أذكر شيئًا عن النداهة وعن تلك الليلة لكنه مشوش تمامًا .. لابد أنهم قيدونى – هؤلاء الحمقى – لكيلا ألحق بالآخرين .. قلت فى صوت متحشرج :

– (طلعت) !.. أنا بخير .. أرجوك أن تفك قيودى ..

نظر لى فى حيرة ولم يرد ..

– (طلعت) !.. دعنى أنهض وسأخبرك بكل شيء .. لقد زالت الغيبوبة ..!

وجهه مغطى بالظلال ولا يريد أن يرد ، من حقه ألا يصدق لكن كيف أقنعه ؟

– (طلعت) !.. صدقنى .. أنا لا أكذب ..

نهض فى حزم ووضع الخطاب فى جيبه ... وقال لى بجفاء واضح :

– استعذ بالله يا دكتور ولا تلبِّ نداء الشيطان .

– ولكن ..

– إنها تلك الملعونة تحاول أن تدعوك إليها .. لكنك لن تخدعنى ..!

وحمل مصباح الكيروسين فى يده متجهًا للباب ، وفتحه .. وقبل أن يخرج قال مكررًا فى اشمئزاز كأنه يبصق ..

– لن تخدعنى !

* * *

٩ ـ أخيرًا فهمت !

في ظلال الليل ومع الهدى الإجباري بدأ تفكيري ينشط ويصفو حتى وصل ذروته .. وبدأت أحلل الحقائق وأفندها .. كل كلمة وكل صورة وكل موقف كان له دورًا في هذه القصة ..

بدأت الصورة النهائية تكتمل لكن ثغرات عدة كانت تملؤها .. المهم الآن أن يطلقوا سراحي ولو قليلًا لأني بحاجة إلى الحركة ..

★ ★ ★

في الصباح جاءت (رئيفة) بالإفطار ، وجلست جواري على السرير وشرعت تدس لقيمات مغموسة بالعسل في فمي .. اللعنة !.. أنا لا أحب العسل إن كل ما مررت به من تجارب مروعة لا يساوي عندي أن آكل العسل وأنا مقيد بالحبال ! لهذا بصقت ما في فمي جعلها تجفل .. وصحت :

ـ (رئيفة) .. أنا بخير .. لقد شفيت ..

ـ يارب !

ـ لقد استجاب الله بالفعل لدعائك .. ألم تلاحظي أنني أتكلم؟

ـ لقد أخبرني (طلعت) .. وأخبرني أيضًا أن هذه خدعة من النداهة ..!

يا للغباء !.. من حسن حظها بالفعل أنني مقيد .. قلت في غيظ :

ـ ومتى ستقولين إنني شفيت إذن ؟!

ـ حين .. حين تُشفى !

ماذا أفعل مع هذه الحمقاء العزيزة ؟!.. إن ذهولي هو دليل مرضي ـ كما تعتقد ـ إلا أن عودتي للواقع هي دليل أكثر خطورة على نفس المرض ..! أخذت نفسًا عميقًا وقررت أن أسايسها برفق :

ـ (رئيفة) ..

ـ نعم ..

ـ إن النداهة تنادي ليلًا .. أليس كذلك ..؟

ـ بلى ..

ـ ونحن الآن في الصباح .. أي أن رغبتي في التحرر لا غبار عليها ..

ـ طبعًا ..

ـ إذن لمـاذا لاتحضرين سكين المطبخ وتقطعين قيودي ؟!

قالت وهي تلملم فتات الفطير المتساقط على صدري وذقني ..

ـ إن (طلعت) قد حلف عليّ بالطلاق لو أنني فككت قيودك ، هو لا يريد سوى مصلحتك ..

اللعنة !.. ها هي ذي الأمور تأخذ طابعًا متأزمًا لا مفر منه .. لو حررتني فقد فقدت زوجها وأسرتها .. قلت في حنق :

ـ إذن سأقضي حياتي هكذا ؟.. حتى إذا شفيت من نداء النداهة ؟

نظرت لي في حسرة وهمست :

ـ إن أحدًا لم يُشفَ من نداء النداهة أبدًا .. ولهذا نحن واثقون أنك لم تشف .. هذا هو كل شيء !

آه .. يا للمنطق المحكم الخرب ..! أمامي الآن حلان .. إما أن أقضي نهاري في محاولات خرقاء لفك القيود آسفًا على أنني لم أكن هوديني(*) وإما أن أخبرها بكل استنتاجاتي آملًا أن تتولى هي مهمة كشف السرّ .. لكنها لن تفهم حرفًا مما سأقوله لها ولن تصدقه ..

في هذه اللحظة دخلت أمي الحجرة هاتفة في مرح :

ـ صباح الخير يا بني .. لقد جاء حبيبك ..

ـ حبيبي ؟!

ـ نعم .. د. (عاصم) وزوجته للاطمئنان عليك .. قل له كل ما تريد ..

(*) (هوديني) ساحر عالمي شهير اشتهر بقدرته على فك القيود والهرب من الفخاخ مهما كانت محكمة.

ـ أقول له ما أريد ؟!.. إن الإغراء شديد بالفعل ..

* * *

دخل د. (عاصم) بصلعته المميزة الغرفة حاملًا حقيبة الفحص ووراءه زوجته (عواطف) وقد بدت في أجمل حالاتها في ضوء النهار .. وما إن رآني حتى اتسع ثغره بابتسامة بلهاء وصاح :

ـ الحمد لله على سلامتك أيها الزميل !.. أخبرتني (الحاجة) أنك قد تكلمت بالأمس ..

كانت نظراتي مثبتة على (عواطف) .. على قلادتها بالذات ، وقد لاحظت نظرتي فأغلقت زر قميصها العلوي في شيء من الحرج ، وغمغمت :

ـ حمدًا لله على السلامة !

التفت د. (عاصم) إلى أمي وقال في مرح :

ـ نريد الشاي يا ست الكل ..

ثم التفت إليّ ، وجلس على حافة الفراش قائلًا :

ـ لقد تركت الوحدة في ساعة الذروة من أجلك ..

ـ بارك الله فيك .. اجلسي يا مدام (عواطف) ..

جرّت (عواطف) كرسيًا من الجريد وجلست عليه جوار الفراش وهي تتحاشى النظر لوجهي في إصرار .. غريب هذا الاجتماع العائلي بين طبيب سعيد مثله وزوجته مع



وقد لاحظت نظرتى فأغلقت زر قميصها العلوى فى شىء من الحرج ، وغمغمت : ــ حمدًا لله على السلامة ..

رجل مقيد فى الفراش وقد نمت ذقنه المشعثة فبدا كالمجانين .. ، دعك من أننى لم أكن قد استحممت منذ أسبوعين مما جعل رائحتى ككهوف النيبة ..

أحضرت أمى الشاى فنهضت (عواطف) لتأخذ منها الصينية ، ووضعتها على الأرض الترابية جوار الفراش ، فى حين قال د. (عاصم) :

ـ والآن هلا تركتنا بعض الوقت ياحاجة ؟!.. أغلقى الباب خلفك لأننا سنناقش مستقبل ابنك ولماذا لم يتزوج ؟

ضحكت أمى فى مرح ودعت له ولزوجته ثم فعلت كما قال ..

ـ والآن هات ما عندك ..

ـ ومن قال لك إن هناك ما عندى ؟!

ـ عيناك ..

ـ ليس قبل أن تفك قيدى ..

ـ أما هذا فلا .. لقد وعدت هاتين البائستين .. ولحسن الحظ أنهم لم يربطوا لسانك بحبل من الليف هو الآخر ..

أخذت نفسًا عميقًا ونظرت لسقف الحجرة ثم قلت :

ـ حسن .. سأتحدث .. ولكن لاتقاطعنى .. ، ضع نظارتى على أنفى على الأقل ..

لك هذا ..

- فى البدء كان اللغز غامضًا كالموت نفسه ... ولم يكن هناك بصيص من هدى ؛ لهذا أرسلت عينة من دم مريض لتحليلها فى القاهرة بحثًا عن شىء ما ... وأمس وصلنى التقرير .. يقول إن هناك نسبة ما لاتذكر من مادة الباربيتيورات ..

- ومـاذا فى ذلك؟.. ألـم تعطـه أنت حقنـة فينوباربيتون ؟!

- كلا .. لقد أعطيت هذا المريض حقنة فينوباربيتون بعد وليس قبل التحليل ..

أى أنه كان يتعاطى - أو يُعطى - هذا العقار فى أثناء مرضه ..

والآن هل تعلم من هو هذا المريض ؟!.. إنه (رضا إسماعيل) أخى ..

- وهل .. هل أخفيت على ذلك كل هذه الفترة ؟!

- أنا نفسى لم أر مبررًا لذلك ، لكنى - حين أعيد التفكير - أرى أنه أحكم تصرف فعلته فى حياتى .. والآن دعنا نسترجع الأحداث .. فى كراستك الصغيرة التى أريتنى إياها فى الوحدة حين زرتك أول مرة ذكرت اسم (رضا إسماعيل) وأنه فيمن نالتهم النداهة .. كيف أمكنك معرفة ذلك فى حين أن زوجة أخى لم تخبر أحدا فى القرية بهذا الموضوع ولم تجلب له طبيبًا غيرى ..؟!

إنك قيدت اسمه فى الكراسة دون أن يخبرك به أحد .. فما السبب ؟!

قال فى إرتباك :

- ربما هى كلمة سمعتها هنا أو هناك .. لابد أن الخبر تسرّب ..

قلت فى حزم :

- ألم أقل لك ألا تقاطعنى ؟.. ثم إننى قابلت النداهة المزعومة ... وكان الموقف مريعًا لكنى احتفظت فى ذهنى بملامحها .. واستطعت أن أرسمها لكنى نسيت بعض التفاصيل التى كانت تجعلها متوحشة ، مما جعلها أقرب لصورة أنثى عادية .. حين رأيت أنت و (عواطف) هذه الصورة أصابكما الوجوم .. لماذا ؟!.. لأن الصورة بدت أقرب إلى (عواطف) منها للنداهة ... لكنى لم أفطن لهذا الشبه وقتها وخيل لى أن هناك تشابهًا شديدًا مع (نجاة) زوجة أخى .. إن النداهة التى رأيتها تملك شامة زرقاء على خدها وهذه يسهل رسمها .. أما العينان الحمراوان فيمكن لعدستين ملتصقتين ملونتين إعطاء الإيحاء بهما .. أما اللون الفسفورى المشع ليلًا فهو شديد السهولة ، إن الماكياج الذى كان على وجه النداهة كان متقنًا وكان بارعًا لكن نسيان الشامة يفسد كل شىء ..

أضف إلى هذا أن الأنثى هى الأنثـــى .. لم تنس (عواطف) أن تضع قلادتها الذهبية الجميلة ـ التى ترتديها الآن ـ على عنقها وهى تمثل دور النداهة ، لم يتسع عقلى لاستيعاب شكل القلادة لهذا ظلت مجرد صورة فى ذاكرتى لثعبانين يلتهم كل منهما ذيل الآخر لاأذكر متى وأين رأيتها .. ومن عادات (عواطف) أن تضع يدها على جيدها فى أثناء الكلام لهذا لم ألحظ أنها ترتدى هذه القلادة إلا الآن ..!

والنقطة الأخيرة هى صوت (عواطف) المبحوح .. إن سر هذه البحة هو كل هذا المجهود الذى تبذله حنجرتها فى النداء على الفلاحين ليلاً .. هذا الصوت الرهيب غير البشرى لابد وأنه أتلف أحبالها الصوتية ..

ويوم زرتك فى الوحدة أول مرة لم ألق زوجتك .. قلت إنها كانت فى ولادة بالقرية لكن هذا غير صحيح .. لقد تفقدت سجل مواليد القرية يومها فلم يكن هناك أى مولود ، كانت ـ ببساطة ـ تنادى (رضا) أخى وقتها ..!

قال د. (عاصم) وقد ارتسم شبح ابتسامته على ثغره :

ـ وماذا عن الفلاحين الذين رأوها تمشى فوق الماء ، أو لاتترك ظلاً ؟

ـ لقد كاد قلبى يتوقف رعبًا وأنا لاأومن بها .. فهل تتوقع من فلاح أو طفل يراها بهذا الماكياج المريع ألا يفقد صوابه ؟! .. لايمكن أن يكون كلامه متماسكًا .. إنه سيراها عندئذ كما يظن أنها ستكون وليس كما هى فى الواقع .. وعلى كل حال لا أظنكما عاجزين عن تلفيق خدعة بصرية كهذه !

قال د. (عاصم) وهو يتبادل النظرات مع (عواطف) :

ولكن الحالة أصابتك أنت نفسك بكل تفاصيلها المرعبة .. هل كنت أنت أيضًا تمثل معنا ..؟!

تنهدت فى يأس وقلت :

ـ إن هذه هى الثغرة فى قصتى .. لكن تذكر أن المرض هاجمنى بعدما كنت عندكم وبعدما شربت الشاى الذى قدمته لى زوجتك .. ماذا كان فى الكوب ؟..

والأهم هو أننى ودعتك فى الحادية عشر مساءً ووصلت دارى فى الواحدة صباحًا ..

وليس لدى أدنى تفسير لما فعلته أو حدث لى فى هاتين الساعتين ..

إننى كنت ضحية معالجة ما لا أفهمها لكنها تؤدى لجنون ذهولى دائم .. وأنت وزوجتك هما من يملكان التفسير ..

نظر لى د. (عاصم) فى ثبات وقال :

ـ والآن ـ بفرض صحة كلامك ـ ماذا تريد ؟

ـ النصف الآخر من الحقيقة وهو لماذا فعلتما ذلك ؟

أشعل د. (عاصم) سيجارة .. ونظر نظرة ذات معنى إلى (عواطف) فنهضت للحقيبة وناولته شيئًا ما منها .. محقنًا زجاجيًا مليئًا بسائل أبيض .. وقال لى :

ـ هناك حقيقة واحدة يا زميل !.. لقد كنت قوى الملاحظة لكنك ساذج .. ساذج بشكل مرعب .. وأحمق أيضًا ..

أخيرًا ..! لقد اعترف ـ لأول مرة ـ بأن كلامى صحيح .. إلا أنه أردف :

ـ عندما يواجه المرء أعداءه بحقائق كهذه يجب عليه أن يكون فى موقف قوة لا أن يقول كلامه وهو منعزل ومقيد فى الفراش .. والآن أنت تحت رحمتنا تمامًا ..! كان يجب أن تنتظر حتى تتحرر .. والآن ..

ـ حقنة هواء فى عروقى ؟!

ـ لا .. إنها طريقة قذرة .. أولًا سأعطيك جرعة من الباربيتيورات لتنام ثم نفك قيودك جزئيًا بشكل لن يلاحظه أحد ، وفى المساء سينام الجميع عندئذ ستلبى نداء النداهة .. وستحضر لنا إلى حيث تعرف مصير من سبقوك ..!

فتحت فمى لأصرخ إلا أن (عواطف) كوّمت الملاءة وحشرتها فى فمى حشرًا حتى تكتم صوتى ، فى حين شرع (عاصم) يعرّى ذراعى .. وفى تؤدة أفرغ الحقنة فى وريدى .. ثم إنه نهض لاهثًا :

ـ عندما تعود أمك وأختك للغرفة ستعرفان أن مناقشتنا قد أنهكتك .. وأنك ستنام طيلة اليوم ..

ثم أعاد محقنه للحقيبة .. وضحك :

ـ أراك هذا المساء أيها الزميل !

* * *

١٠ - المعمـــل ..

استغرقت بعض الوقت كى أدرك أين أنا ومن أنا ، وحين فتحت عينى لم يكن ما رأيته هو حجرتى الفقيرة الأنيقة بل كانت غرفة واسعة تزحف الرطوبة والطحالب والعفن على جدرانها ..

كنت مقيدًا إلى الحائط بجنزيرين صدئين فى وضع المصلوب ... وجوارى كان جردل فارغ وغلاية حقن معدنية موضوعة فوق موقد جاز عتيق ... وكانت رائحة العقاقير تملأ الجوّ ... والأغرب هو أننى كنت أرتدى البيجامة وحافيًا ..

ثم عرفت ذلك الشىء الذى يمنعنى من الكلام .. شريط عريض من البلاستر ملصق فوق فمى ، وكانت قدماى حرّتين لكن لم يكن شىء فى مجال حركتهما ..

رفعت وجهى فى هدوء لأرى ما هناك ... كنت قد فقدت نظارتى لكنى لم أكن قصير النظر إلى هذا الحد الذى يمنعنى من تبين تلك الأجساد الآدمية نصف العارية المقيدة إلى الجدران من حولى ..

كانت هناك أربعة أجساد لرجال فى العقد الثانى أو الثالث من العمر وأحدهم أقرب لسن المراهقة ، كلهم

مقيدون - بنفس الكيفية التى أنا مقيد بها - للحائط .. وعلى فم اثنين منهما قطع بلاستر لاصقه ، على أنه لم يكن هناك كثير حاجة لذلك لأنهم كانوا جميعًا فى حالة ذهول تام ..

ولكن .. من هو هذا الرجل ضخم الجثة الذى أغمض عينيه وتدلّى رأسه على صدره ؟!.. إنه هو ..!.. (رضا) أخى !.. هو بعينيه ..

الآن تذكرت قصة د. (عاصم) ، والحقنة التى أخذتها ... والمواجهة ... و (عواطف) و .... يبدو أنه نفذ تهديده حرفيًا وهو يعرف ذلك الذى يفعله جيدًا .. والآن أنا أسيره ، ويبدو أنه لا مفر لى من قبضته .. كل ما علىّ هو أن أنتظر لأرى ..

أما باقى الغرفة فكان يحوى منضدة عليها أنابيب اختبار عدة .. وموقد (بنزن) وميكروسكوب ضوئى متهالك .. وآلة طرد مركزى ..

صوت باب ينفتح ببطء ..

وعلى بصيص الضوء الخافت القادم من النافذة رأيته .. د. (عاصم) وقد ارتدى معطفًا ملوثًا بالدماء ومن خلفه (عواطف) زوجته ... وكان يمسك صينية عليها قوارير عقاقير مختلفة الأنواع ... وفى ثقة انتزع قطعة البلاستر من على فمى ..

ـ صباح الخير أيها الزميل !

هتف بى وهو يضحك متشفيًا .. ووضع ما فى يده على المنضدة ..

ـ كيف حالك ؟

ـ أفضل مما تتوقع أيها الجزار !..

ـ يبدو أن نوم الليلة لم ينجح فى تهذيب أخلاقك .. لقد فككنا قيودك بشكل لم يلاحظه أحد .. وحين جاء الليل نادتك النداهة فنهضت من فراشك ووثبت من النافذة وجئت إلىّ متحمسًا .. أليس هذا رائعًا ؟!

ثم إنه أمسك بمعصم زوجته وأشار لى :

ـ تخيلى هذا يا (عواطف) .. أستاذ أمراض الدم العظيم هو حيوان تجارب فى معملى ..! دعينا نعرّفه على زملائه فى الأسر ..

ثم مضى إلى الحائط .. إلى الرجال المكبلين بالسلاسل ، وشرع يشير لهم واحدًا واحدًا :

ـ هذا الفتى الوسيم هو (إبراهيم السقا) .. شاب فى الثالثة عشرة من عمره ، قلبه ملىء بالعواطف وذهنه ملىء بالطموحات .. إلى أن جاءت النداهة ..

وتحرك إلى رجل أصلع ضخم الجثة ينظر لنا نظرة خاوية خرساء .

ـ وهذا الأخ هو (الزغبى فرحات) .. أول ضحاياى .. وهو رب أسرة ورجل ورع شديد الرزانة ..

ثم تحرك إلى شاب كث الشارب تدلى رأسه على كتفه ..

ـ وهذا (سعيد جابر) .. عامل البناء الشاب الذى ضرب زوجته كى يلحق بالنداهة .. أما هذا ..

وتوقف عند أخى ..

ـ فهو (رضا إسماعيل)، شقيق الدكتور (رفعت) .. لقد ضممته للمجموعة أمس فقط بعد أن أخذتك أنت الآخر .. والآن تصور مشاعر أمكما التى فقدت ولديها الراشدين فى ليلة واحدة ؟!

ثم أشعل سيجارة ، كان يعرف كم هو سمج ويستمتع بذلك ، لقد وجد أقصى متع الحياة فى أن يكون وغدًا ..

ـ والآن نأتى لموضوعنا الذى أثرته أنت أمس .. ما هو هدفى من كل هذا ؟.. دعنى أخبرك بسرّ صغير يا د. (رفعت) .. إننى عبقرى !.. أنت لم تلحظ هذا بالطبع لأن العباقرة لايمشون برأس متضخم كالذى نراه فى قصص الخيال العلمى .. لكنى أؤكد لك أننى عبقرى ..

وما الذى نلته من ذلك ؟!.. لاشىء .. سلسلة طويلة من الإحباطات .. لم أوفق إلى الالتحاق بسلك الجامعة ونفيت إلى هذه القرية القذرة التى لاتناسب أحلامى ..

وحتى فى الحب ..

وارتجفت شفتاه قليلًا وهو يردف :

ـ حتى هنا لم أوفق ... كان رأسى الأصلع ونظارتى السميكة يعوقاننى عن الحصول على الفتيات اللواتى أرغب فى أن يشاركن حياتى ، كل شىء فى الحياة كان يرغمنى على أن أكون ما أرادوه لى .. مجرد فأر أرياف منزو متعزل وفقير .. وحين أموت لن يذكرنى أحد ، ولن يبكى علىّ أحد ..

ونفث دخان سيجارته فى إنهاك .. وأردف :

ـ وهكذا .. قررت أن أنتقم ... إننى أعرف أن أسطورة النداهة قديمة فى هذا البلد ؛ لهذا تزوجت (عواطف) .. وبدأت فى تحويلها إلى نداهة حقيقية .. أنت لاتتصور عبقريتى فى الماكياج ... ولكن .. إنك رأيتها فعلًا وأصابك الذعر هل تنكر ؟

ـ لم أنكر لحظة ..

ـ كنت أختار ضحيتى من زوار الوحدة الصحية ، وكنت أنفرد به فأحقنه بجرعة صغيرة جدًا من (بنتوثال الصوديوم) .. إنهم يسمونه مصل الحقيقة لأنه يضعف الإرادة ... وهكذا أبدأ نوعًا خاصًا جدًا من التنويم المغناطيسى تحت تأثير هذا الدواء ... وأقنعه أنه يحب

النداهة .. وأن عليه أن يلبى نداءها حين يسمعه فى الليل .. وأن يظل صامتًا لايأكل ولايشرب فى انتظار النداء ..

وفى الليل ترتدى (عواطف) ثياب النداهة الفسفورية وتقف عند بيت الضحية وتبدأ فى النداء باسمه ... أحيانًا كان يلبى وأحيانًا كان أهله يحكمون الحصار حوله ..، لكنها ـ مهما طالت المدة ـ كانت واثقة أنها آمنة وأن أحدًا لن يجرؤ أبدًا على الخروج لمضايقتها ... أضف لهذا أننى ـ أو عامل الوحدة ـ كنا دائمًا على مقربة منها على استعداد للتدخل إذا حدث شىء ..

وكنت أزور الضحية صباحًا فأعطيه جرعة صغيرة (منشطة) من الباربيتيورات ليظل وعيه فى حالة السبات ، إننى الوحيد فى القرية الذى له الحق فى إعطاء حقن لايعرف نوعيتها أحد للمرضى ..

ثم تأتى الليلة الموعودة ..

الليلة التى يلحق فيها المريض بالنداهة .. عندئذ أبادر أنا أو عامل الوحدة إلى تخديره ونقله إلى هنا .. أى إلى سكن الممرضات الخالى بالوحدة والذى لايصعد إليه أحد ولايجرؤ أحد على تفتيشه ..

ـ ولماذا لاتخطف من تريد مباشرة وتنتهى ؟!

ـ الفن ..!

قالها بلهجة من يقرر حقيقة لا غبار عليها ..

ـ الفن يا صديقى .. الفن ... يجب أن تكتمل جوانب الأسطورة وتتسق مع بعضها .. ألم أقل لك إننى عبقرى ؟!..

ـ وما جدوى كل هذا ؟.. وما فائدة جمع الفلاحين كالفراش ؟!

ضحك فى سرور .. وهتف :

ـ هذا هو بيت القصيد .. إن لهذا شطرين .. الشطر الأول هو استمتاعى الخاص بإحياء قصة النداهة وإفزاع هؤلاء الناس ، والشطر الثانى هو حاجتى إلى حيوانات تجارب بشرية لإجراء نوع خاص جدًا من الأبحاث .. أبحاث هى وليدة قراءاتى وعبقريتى ، أبحاث ستؤدى إلى صنع الإنسان الأعظم .. السوبرمان ..

قلت له فى سخرية :

ـ لهذا وجدت فى حجرتك كتب (نيتشه) وكفاحى (لهتلر) وكل هذه الروايات عن الخيال العلمى ... أنت تعتنق إذن هذه الأفكار النازية المخبولة ..!

اعتصر سيجارته بين أسنانه وغمغم :

ـ ليست أفكارًا مخبولة ... إنها رؤيا خارقة لا يفهمها أمثالك ... أنت عالم حقًا ولديك شهادات علمية لا أعرف حتى كيف أقرأ أسماءها لكنك مجرد صرصور آخر يحرك شواربه فى جشع بحثًا عن المادة ..

ويبصق فى اشمئزاز :

ـ صرصور ..!

تجاهلت إهانته التى لا مبرر لها أبدًا ، وسألته :

ـ لدى خمسة أسئلة أرجو أن تجيب عليها ... أنا أعرف أنك متلهف على بدء تجاربك علىّ لكنى لا أريد أن أموت أو أجن وأنا لم أفهم بعد ..

ـ سل ما تريد ..

ـ السؤال الأول هو : لماذا جعلتمونى أرى النداهة فى تلك الليلة ؟

ماذا كان سيكون تصرفكم لو أننى هاجمتها ؟!

قال وهو يهرش صلعته :

ـ كان هناك احتمالان .. الاحتمال الأول ـ وهو الأفضل ـ كان أن يصيبك الهلع وتفر وتزداد إيمانًا بوجود النداهة وهو ما حدث تقريبًا ، أما الاحتمال الثانى فكان أنك قد تهاجمها ، وعندئذ كنا سنثب عليك أنا و (صلاح) عامل الوحدة لنحقنك ببنتوثال الصوديوم ثم تبدأ معك قصة النداء الغامض ..

أنت نفذت الاحتمال الأول .. إلا أنك اقتربت جدًا من الحقيقة حين رسمت وجه النداهة ـ أو (عواطف) ـ بهذه الدقة لهذا آثرنا أن نبدأ معالجتك فورًا .. دست لك (عواطف) مخدرًا فى الشاى .. ومارست أنا تنويمك مغناطيسيًا بمعونة بنتوثال الصوديوم .. وحين عدت لدارك ـ بعد ساعتين ـ كنت قد صرت مسحورًا آخر ينتظر النداء ..

هززت رأسى علامة على الفهم .. ثم قلت :

ـ السؤال الثانى : هل لك علاقة باختفاء (عبد الرازق)؟.. الفتى الذى قلت أنا إنه مسعور ؟

ـ بالطبع لا .. لقد فرّ الفتى لأنه مصاب بمرض الكلب وقد وجدوا جثته فى (الرياح) منذ ثلاثة أيام ، لقد أصابته نوبة هياجية جعلته يفر ويرمى بنفسه هناك ، وطبعًا لم يجدوه إلا بعد عشرة أيام ... إننى برىء من دمه ..

ـ السؤال الثالث : هل حقًا لم تر أخى (رضا) فى بيته بعد إصابته بمرض النداهة ؟.. إذن كيف وجدوا مادة الباربيتورات فى دمه بعد أسبوع من مرضه ؟

ابتسم فى مودة كأنه أستاذ يهنئ تلميذًا مجتهدًا .. وقال :

ـ أنت حقًا ذكى .. لم تنس علم الأدوية بعد ، ولم تنس أن بنتوثال الصوديوم قصير المفعول جدًا وأن أثره فى الدم

يختفى بعد أقل من ساعة من حقنه ... أنت تريد القول إن هناك من كان يزوره ويحقنه بالباربيتورات فى الفترة التى تلت حقنتى الأولى ، وهذا صحيح .. لقد كانت (نجاة) زوجة أخيك تدعونى سرًا لرؤية زوجها وحقنه لأنها لم تكن تثق فيك البتة وكانت تؤمن أنك ـ عدم المؤاخذة ـ حمار ..!

ـ اللعينة ..!

ـ والآن قل سؤالك الرابع بسرعة ..

ـ السؤال الرابع هو : كيف تطيعك (عواطف) بهذه السهولة ؟!

وضع يده على كتفها فى حنان وقال :

ـ إنها تؤمن بى بشدة ... وتفعل أى شىء أطلبه منها ..

ابتسمت (عواطف) فى فخر ... زوجان سعيدان يحب أحدهما الآخر ولو لم أكن مقيدًا فى قبضتهما كالذبيحة لتمنيت لهما الخير ..!

ـ السؤال الخامس هو : ما نوع التجارب التى تجريها على هؤلاء التعساء ..؟!

ـ سؤال جيد .. إننى أحاول صنع الإنسان السوبر مان لهذا أعرضهم لمؤثرات شتى من الإجهاد الحرارى والسموم والبكتريا .. إن قوة تحملهم تزداد يومًا بعد يوم ..! وعما قريب لن يؤذيهم شىء ..

ـ يا لك.... باكتريا ..! لكنك مخبول تمامًا !.. إنك تقتل هؤلاء التعساء ببطء !

قال فى كبرياء وهو يرمى سيجارته :

ـ إن مالايقتلنى يزيدنى قوة ..

ـ وإذا قتلك ..؟

ـ عندئذ أكون أنا إحدى الفضلات التى مرّت مع مصفاة الانتخاب الطبيعى ومن دونى ستكون الحياة أفضل .. هكذا تكلم زرادشت يا عزيزى !!

يا للمعتوه !.. تمنيت فى هذه اللحظة لو كان (نيتشه) أمامى كى أحطم رأسه .. ما أكثر المجانين الذين يزخر بهم هذا العالم وأنا لاأعترض على وجودهم بشرط ألا يؤدى هذا إلى إفناء وجودى أنا .. شخصية محبطة معقدة تعيش وحدها فى الريف وتقرأ كتبًا مخبولة ليلًا ونهارًا .. فماذا تكون النتيجة ؟!!

انتهت خمسة الأسئلة وحان وقت العمل ..!

فى صمت ـ كأنه جلاد يمارس عمله التقليدى ـ أعاد لصق قطعة البلاستر على فمى، ثم تناول محقنًا من (عطيات)، وأفرغه فى وريد ذراعى .. ثم تناول ملفًا مكتوبًا عليه بخط أنيق :

« دكتور (رفعت إسماعيل) ـ أستاذ أمراض الدم (٣٧ سنة) خُطف ١٢ مايو ١٩٦٢ م.

وبدأ يخط فيه عبارات عدة بالإنجليزية .. واكتسى وجهه بصبغة رسمية صارمة وهو يصدر تعليماته لزوجته كأنه فى مستشفى كبير :

ـ الحرارة والنبض وضغط الدم وتغيرات الحدقة كل ٤ ساعات، الوجبات العادية .. غدًا نبدأ الإنهاك الحرارى ..!

إنهاك حرارى ؟!.. ألن ينتهى هذا الجنون ؟!.. وكيف أمضى حياتى واقفًا فى هذا الوضع أنا الذى لاأحتمل الجلوس فى مكان واحد أكثر من ربع ساعة ؟!

إنه لمأزق حقيقى ..

* * *

بعد أربع ساعات كنت قد انتهيت تمامًا ..

هأنذا مقيد تحت رحمة طبيب مجنون كما يحدث فى الروايات العلمية الرخيصة .. المشكلة أننى لم أتخيل نفسى أبدًا فى هذا الموقف .. والمشكلة الثانية هى أن البطل ـ فى هذه الروايات ـ يهرب دائمًا فى آخر فرصة .. فكيف أهرب أنا ؟!..

طبعًا لاجدوى من محاولة الاستغاثة أو إدماء معصمى بشد القيد لأن من سبقونى ـ بالطبع ـ قد حاولوا كل هذا

وفشلوا ... ولاجدوى من أن يبحث عن أحد فى القرية لأن اللعين أجاد حبك قصته ، وهم لا يشكون فى أن النداهة قد افترستنى أنا وأخى ..

فتح الباب ودخلت (عواطف) واتجهت نحوى ، وفى برود تفحصت حدقة عينى ثم وضعت ترمومترًا تحت إبطى ولفت جهاز الضغط حول ذراعى .. وعدت نبضى ، ثم إنها قرأت الترمومتر ، واستدارت لتتصرف فناديتها بقدر ما استطعت خلف البلاستر ..

ـ (عواطف) ! ألا تفهمين ما الذى سيقودك إليه هذا المعتوه ؟

ـ ماذا ؟

ـ السجن أو ما هو أسوأ ..! فكرى فى ذلك .. لم تزل لديك فرصة ..

فكرت حينًا بوجه مغلق .. ثم إنها قالت وهى تهز كتفيها وتعيد تثبيت البلاستر :

ـ هذا ليس من شأنك ..!

وتركتنى وانصرفت ..!

* * *

وجاء الليل ..

عادت (عواطف) حاملة إناء كبيرًا به عشاؤنا .. وشرعت تدور على الأسرى واحدًا واحدًا تدس فى فمه

ملعقتين أو ثلاثًا من هذه المادة الهلامية المقرفة ثم تتركه يمضغ بشكل ميكانيكى وتذهب لآخر .. وجاء دورى ! رفعت البلاستر من على فمى ..

كلا !.. لن آكل من هذا الشىء !، ولن يكون فمى هو الخامس بعد هذه الأفواه ..!

ـ ألن تأكل ؟!

سألتنى فى فظاظة ، فقلت لها دامعًا وأنا أشعر بأننى مظلوم إلى حد لايوصف :

ـ لا .. لا..!

ـ كما تريد .. عندما تموت جوعًا ستتوسل من أجل هذا ..!

وهنا خطرت لى فكرة .. الوتر الوحيد الذى يمكن أن ألعب عليه هو مشاعر الأنثى .. أنا لاأفهم المرأة تمامًا ولو كنت أفهمها لكنت متزوجًا منذ عشر سنوات لكننى أعرف عنها صورة ضبابية من قراءاتى ؛ لهذا قررت أن أستغل ما أعرف :

ـ (عواطـف) !.. هل أنت واثقـة أن د. (عاصم) يحبك ..؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى .. هل هو يستحق كل تضحياتك من أجله ؟!

تفكرت حينًا بوجه مغلق .. ثم هزت كتفيها وأعادت تثبيت البلاستر قائلة وهى تنصرف :

ـ هذا ليس من شأنك !

★ ★ ★

بعد أربع ساعات عادت لتأخذ علاماتى الحيوية ، فقلت لها :

ـ (عواطف) ..! اسمعينى لحظة واحدة ..

ـ هم م م ؟

ـ إن الدكتور (عاصم) لايحبك .. بل هو يرى أن زواجه منك أحد أسباب كراهيته لهذا المجتمع .. أنت إحدى علامات هزيمته وهو لن يغفر لك هذا ..

نظرت فى عينى بوحشية وهمست بفحيح الأفعى :

ـ اخرس !

ـ ولماذا يمنع رجل ناضج زوجته من أن تناديه باسمه المجرد ؟!.. إنه يخجل منك ..

ـ هذا ليس من شأنك ..!

قالتها وهى تهز كتفيها .. وأعادت لصق البلاستر وتركتنى وانصرفت ..!

★ ★ ★

فى موعد الإفطار عدت أمارس لعبتى الخطرة ..

ـ ألم تتصفحى أبدًا كراسة مذكراته ؟!

قالت فى كبرياء وهى تدس الملعقة المشئومة فى فمى :

ـ الزوجة المحترمة لاتتجسس على زوجها .. أبدًا ..

قلت وأنا أمضغ ذلك الخليط الكريه من مواد مرّة وسكرية ومالحة :

ـ إنه فى العيادة الآن .. هلا صعدت إلى غرفته وقرأت مذكراته ؟.. أنا رأيتها .. ووجدت بها قصائد شعر ورسومًا وحديثًا عن فتيات كثيرات أحبهن قبلك ..

ـ لا أصدق ..

ـ أمامك الكراسة .. وهو لايخفيها على ما أظن ..

ـ هذا ليس من شأنك ..!

قالتها وهى تهزّ كتفيها .. لكنها فى هذه المرّة لم تُعد لصق البلاستر قبل أن تنصرف !

★ ★ ★

وبعد ربع ساعة عادت لى والدموع فى عينيها وثمة شىء ما فى قبضتها .. وصاحت وهى تتهالك وأنفها يسيل :

ـ ذلك السافل ..! الملعون !

آه !.. هل أصابت رميتى إلى هذا الحد ؟!.. يالى من داهية ..

ـ أنه لم يتزوجنى إلا لأنى أشبه حبيبته الأولى ..

ـ ألم أقل لك ؟!

ـ والأدهى أنه كتب فى مذكراته أننى لا أشبهها إلا فى الملامح لأنى غبية جاهلة وثقيلة الظل ... وأن ما أفعله من أجله لا يزيده إلا تشبثًا بالأخرى .. ذلك الكاذب المخادع !..

قلت لها وقد شعرت بقلبى يتمزق بالفعل من أجلها :

ـ حاولى أن تنسى ... فكل الرجال لهم حب أول ..

وهنا مدت يدها فى عصبية بالشىء الذى كانت تخفيه .. فتاح صغير صدئ أولجته فى قفل القيود وشرعت تفكها فى جنون وهى تصيح :

ـ والآن اذهب عليك اللعنة !.. اذهب واخرب بيتنا أنا وهو .. فلم أعد أعبأ بشىء .. هيا .. اذهب عليك اللعنة قبل أن أحطم رأسك !

وللحظة لم أصدق أننى تحررت .. كانت أطرافى متصلبة .. وكدت أسقط أرضًا لكن نظرة واحدة لعينيها الناريتين جعلتنى أطلق ساقى للريح ..

أخيرًا !.. الشمس والهواء، ولأول مرة منذ أسبوعين ..

* * *

استغرق الأمر ساعتين كى أحضر بعض رجال الشرطة من المركز ليداهموا الوحدة ، وكنت قد ارتديت ثيابى وحذائى ووضعت مسدسى فى جيبى ، ودخل رجال الشرطة سكن الممرضات فوجدوا الضحايا الأربعة مقيدين كما وصفتهم ..

ثم قرعوا باب سكن الطبيب مرارًا فلم يرد أحد .. تعاون اثنان منهما ضخما الجثة على تهشيم الباب ، ودخلنا الغرفة .. وكانت كما هى لم يتغير فيها شىء .. إلا أن من دخل غرفة النوم عاد لنا ووجهه ممتقع قائلا :

ـ إنهما هنا ..

وعلى الفراش كانا .. هى ساقطة على ركبتيها ووجهها مدفون فى الملاءة كأنها تبكى بينما هو راقد على ظهره مفتوح العينين ونظرة ذاهلة ترمق السقف ... وعلى الأرض انتشرت أقراص (الدونوليز) .. لقد تناولا جرعة قاتلة من دواء السكر أدت لقتلهما على الفور .. لربما أرادت هى أن تموت معه ولربما أجبرها هو لأنه لم يستطع أن يهرب (وأين يهرب) ولم يستطع أن يظل حيًا ليواجه غضب أهل القرية وصرامة القانون وسخرية الدهماء ..

وجواره على الفراش كان كتاب (كفاحى) لهتلر ملقى فى إهمال ..

قلت فى شرود وقد بح صوتى من الرهبة :

ـ لقد أراد أن ينتحرا مثل (هتلر) و (إيفابراون) عندما غزا الحلفاء برلين ..! نفس المشهد الأليم .. ونفس الظروف!

التفت إلىّ رجل الشرطة الواقف جوارى سائلًا :

ـ انتحرا مثل من يا أفندى ؟!

لا يبدو لى أن أحدهم سيفهم ... لن يفهموا مهما قلت أبدًا ..!

نهاية مأساوية لكنها أفضل نهاية ممكنة ..



خاتمة ..

فى مستشفى الجامعة بالقاهرة أكد لى الأطباء مرارًا أن أخى (رضا) بخير وسينجو ، وقد احتاجوا لنقل الدم له مرتين وأجروا له غسيلًا بريتونيًا لإزالة ما دخل جسده من سموم ... وقد ظلت أمى وأختى جواره طيلة الوقت وقد سرهما ما بدا عليه من علامات الشفاء الأكيد ..

أما (نجاة) ـ تلك الأفعى القاسية ـ فقد شكرت الأطباء كثيرًا ولم تكلف خاطرها بتوجيه كلمة شكر واحدة لى ، وعلى كل حال فأنا لم أفعل سوى واجبى نحو أخى ولا أحتاج شيئًا خاصًا منها ..

شىء واحد أثار حزنى ، هو أن زملائى لم يستطيعوا أبدًا إنقاذ (الزغبى) لأن تجارب (المرحوم) كانت قد وصلت معه إلى طريق بلا رحمة ، أما عن (سعيد جابر) فقد استعاد لياقته ، وعاد (إبراهيم السقا) يحلم ويستمتع بالربيع والزهور .. أما أجمل شىء فهو أن أسطورة النداهة قد انتهت لعدة أجيال ولن تعود إلا لصورتها القديمة .. مجرد أغنية ترعب بها الجدات أحفادهن قبل النوم لمجرد التلذذ برؤية الهلع فى عيونهم البريئة المتسعة !!

ولمدة أسبوعين كاملين استمتعت بوجود إمرأتين فى بيتى بالدقى ـ أمى وأختى ـ فعاد النظام والنظافة ، وعدت

آكل جيدًا وألبس جيدًا وأنام جيدًا وازداد وزنى عدة كيلو جرامات ..

وعند الرحيل توسلت لى أمى أن أذهب معهما للقرية كى أعيش هناك للأبد .. لكنى هززت رأسى فى يأس .. ، لن أستطيع أن أتخلى عن مهنتى أبدًا ولن أفارق الجامعة ؛ طلبت منى - على الأقل - أن أتزوج سريعًا كى تطمئن علىّ فى وحدتى .. فوعدتها أن أفعل ذلك بمجرد أن أعود من مؤتمر أمراض الدم الذى سيعقد فى أسكتلندا بعد ستة شهور ..

ودعتهما هما وأخى على المحطة .. ، ثم عدت لدارى الخاوية وقد أدركت تلك الحقيقة المروعة : لقد انتهت اجازتى ولن يسمح لى العميد بيوم آخر وإلا كان فى ذلك خراب بيتى ! ..

حتى ساعات راحتى صارت أكثر توترًا وانهماكًا من ساعات عملى !

والآن وقد انتهت قصتى مع الأشباح حان الوقت لأحظى بحياة طبيعية لكنى لم أكن أعرف أننى سألقى شيطانًا من نوع آخر فى مكان آخر يطير كل احتمال للراحة من حياتى .. ولكن هذه قصة أخرى .

د . رفعت إسماعيل

القاهرة فى مارس ٩٢

[تمت بحمد الله]